



Yūsuf, Zakarīya ʻAlī

الإيمان وآثاره
والشرك ومظاهره

/al-Imān wa-āthāruh/

للاستاذ

زكريا علي يوسف

Front

B

مطبعة الامام ١٣ شارع قرقول المنشية بالقلعة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب مفتوح

إلى إخوانى أئمة المساجد والوعاظ الدعاة إلى الله :

غنى عن البيان أن آثار الإيمان لا تظهر إلا بعد استقرار الإيمان فى القلوب ، وأن أول واجب عليكم هو بث هذا الإيمان ، لكننى وقد عاشرتكم واستمعت لكم سنين عددا اكتشفت أمراً خطيراً رأيت أن أصارحكم به على هذه الصفحات ، قياماً بالواجب علىَّ نحو دينى وأمتى (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب)

لقد تبين لى أنكم فريقان : فريق فهم وظيفته فى الحياة حق الفهم وأدرك واجبه نحو أمته ودينه حق الادراك ، فعلم أن طلبه للعلم لم يقف عند نيله الشهادة ، ولم ينته بوصوله إلى الوظيفة ، بل رأى أن ما ناله من ذلك إنما هو وسيلة لا غاية ، وأنه واجب عليه أن يراجع نصوص دينه من نبعيه الصافيين من جديد ، وعليه أن يفهم ذلك بعقله وفهمه هو لا بعقل غيره ، وعليه أن يبلغ ذلك للناس ، أحبوه أو كرهوه وأنه مسئول أمام الله عما وهبه من هذه الأدوات وعن حسن استعمالها ، فمن قام بذلك فقد حفظ كرامته ، وأدى لله ولدينه حق وظيفته .

وفريق آخر آثر العافية والراحة ، فرأى أنه قد وصل إلى الغاية التى من أجلها تعلم ، وأنه حقق الغرض الذى كان يسعى إليه ، فما عليه إلا أن يسارع فى مرضاة العامة ومتابعة أهوائهم ، ليلتفوا حوله ، ويكثروا من الجلوس بين يديه ، فلا يسمعون منه إلا ما يحبون ، أما ما هم عليه من عادات سيئة ، وأخلاق مرذولة ، وجاهلية أضر من الجاهلية الأولى ، فكل ذلك لا يطرق له باب ، وإن طرقه فللاعتذار عنهم وتأويله لهم ، بل واستحسانه منهم ، والاحتجاج بالآباء والشيوخ .

ولما كان هذا من العوامل التى أخرت الأمة وأضرت بها أبلغ الضرر ، رأيت أن أصارح هؤلاء بأنهم هم المسئول الأول أمام الله عنها ، لأن الله جعلهم أطباء لأمراضها ، فأبوا إلا أن يغشوا المريض ويقولون له إنك بخير وعافية ، فيقعد عن العلاج حتى أوشك على الفناء .

ألا واننا نرى أن المخرج من كل ذلك فى أن يقوم حضراتهم بإرشاد الأمة الى هذه البنود التى نذكرها بعد، والأمل كبير فى استجابتهم لهذا الرجاء، فإننا نعتقد أن فطرهم سليمة، وأن ما أصابهم لم يكن فى صميم الفطرة، ولكن عرض يزول بحسن التوجيه واخلاص النية :

(١) دعوة الناس الى التوحيد الخالص المطهر من جميع أرجاس الشرك وأدرانه وشوائبه، والى حب الله تعالى حبا صحيحا صادقا يتمثل فى طاعته وتقواه والوقوف عند أمره ونهيه، وارشادهم الى أن أول ما يجب عليهم معرفته من هذا الدين هو فرارهم الى ربهم عز وجل بأن يعبدوه وحده لا شريك له (ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر انى لكم منه نذير مبين) (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة) وذلك بأن يجردوا عبادتهم له من كل شائبة، والقرآن كله، وتؤازره السنة، شرح لهذه الشوائب التى تحبط الأعمال، وتجعلها يوم القيامة هباءاً منثوراً (ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين)

(٢) إرشاد الناس الى أخذ دينهم من نبعيه الصافيين : صريح الكتاب وصحيح السنة، لأنه لن يسعدهم فى الدنيا وينجيهم فى الآخرة الا اتباعهما، فما عداهما من أقوال الناس يحتمل الخطأ والصواب، فالصحيح ما حكما بصحته، والباطل ما حكما ببطلانه، أياً كان قائله ومهما نال من اجلال واكبار، فالدين هو الجزاء المنتظر للعبد يوم القيامة، وهو يترتب - ثواباً وعقابا - على مبلغ التمسك بقول الله ورسوله أو الانحراف عنهما .

(٣) ارشادهم الى أن نصوص الكتاب والسنة لا محيد عنها البتة وأن دين الله محصور فى ظاهر هذه النصوص التى قضت حكمة الله أن يذيط بها صلاح خلقه فى دينهم ودنياهم، فألزمهم اتباعها، ونهاهم عن اتباع ما تشابه منها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فمن اطمأن قلبه بالايمان وسعه ما وسع الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم باحسان. فكل هراء الصوفية وتأويلاتهم وشطحاتهم، ودعواهم بأن للقرآن

والسنة ظاهراً وباطنا إن هو إلا كذب صريح على الله ورسوله دسه أعداء هذه الملة للقضاء عليها ، والكلام فى ذلك طويل سنتناوله فى رسالة مستقلة .

(٤) الدعوة إلى حب رسول الله ﷺ حباً صادقا صحيحا يحمل على اتخاذه مثلا أعلى ، وأسوة حسنة ، والاقتداء به فى عباداته ومعاملاته وأخلاقه ، ومجانبة كل ما لم يكن عليه أمره وأمر أصحابه وتقديم قوله على كل قول أياً ما كان قائله (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) ومن قوله ﷺ فى ذلك المعنى « لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »

(٥) الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور ، والوقوف عند قول رسول الله ﷺ « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » فكل ما جاء به فى حياته فهو دين إلى قيام الساعة ؛ وما لم يأت به فليس بدين إلى يوم القيامة لقوله تعالى فى آخر آية أنزلها إليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون)

ومحاربة الخرافات والعقائد الفاسدة التى ليس لها سند من الكتاب أو السنة ؛ والعمل على هداية الناس إلى الحقائق التى لا تقبل شكا ولا جدلا .

(٦) إرشاد الناس الى أن حياتهم الدنيوية والأخروية مرتبطة أوثق رباط بتلاوة القرآن حق تلاوته وفهمه وتدبره والعمل به والتخلق بما يدعو إليه من خلق ، واستمداد العبرة والذكرى منه لأنه كما قال منزله لعريفا بحقيقته (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم) وكما قال بيانا لوظيفته (أوَ من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون)

فكل قلب لم يحى به فهو ميت ، وكل قلب لم يستنر به فهو مظلم وعلى ذلك فاتخاذه حجبا تشفى من الأمراض أو تمائم تقى العين أو اقتناؤه بركه أو قراءته فى جنائز الموتى وعلى قبورهم أو غير ذلك مما هو ليس من غرضه ، نقول إن هذا جميعه من

الخرافات التى ليس لها أصل فى الدين الصحيح ، وإنما هى تقاليد يتوارثها الناس من غير تفكير ولا هدى ولا كتاب منير .

(٧) إرشادهم الى أن الله تعالى وصف الخير ووعد فاعله بالخير والمغفرة ، ووصف الشر وأوعد آتيه باللعنة وسوء الدار ، ولم يعين أشخاصا بأعيانهم ولا أمة بذاتها ، بل الناس أمام هذا المبدأ السامى سواء ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به) وأنه من قصر به عمله لم يُسرع به نسبه . (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ويكفى أن يطبق الرسول الأكرم هذا المبدأ على بضعته الطاهرة فاطمة رضى الله عنها فيقول لها : يا فاطمة سلينى من مالى ما شئت ، اعملى فلن أغنى عنك من الله شيئا .

(٨) ارشادهم الى أن ارتكاب الذنوب وانتهاك الحرمات بغير مبالاة مع قطع ما أمر الله به أن يوصل من إقام الصلاة وايتاء الزكاة انما هو نتيجة لازمة لعدم ايمانهم باليوم الآخر ؛ يشير الى ذلك قوله تعالى (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) وذلك راجع الى تورطهم فى ضروب الشرك التى تورط فيها الناس من قبل والتعلق بغير الله ، فلو أنهم آمنوا به وقدروه قدره ورجوا رحمته وحده وخافوا عذابه ، لما تعدوا حدوده ولا انتهكوا حرماته بهذه الجرأة العجيبة والاستهتار الفاضح . والقرآن يثبت بجانب الذنوب الذى أخذ بها الأمم السابقة أنهم كانوا به مشركين ، فنسبة الشرك الى الذنوب نسبة المقدمة الى النتيجة .

(٩) ارشادهم الى أن الالتزامات التى ألزم الله بها عباده : أمراً كانت أو نهيا ، ليست الا رحمة بهم (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وأن ما ورد منها فى الكتاب أو فى السنة انما هو مجموع واحد ، لا يقبل التجزئة ، فمن أخذ منها شيئا وترك شيئا فهو ممن آمن ببعض وكفر ببعض ، وأن من هوّنوها على الناس باسم العلماء فعرّفوهم من حيل ابطالها ماصيرها كأن لم تكن ـ كحيلة اسقاط الصلاة

واسقاط الزكاة - نهم المجرمون الذين يعترف بعض أهل النار بأنهم سبب ما هم فيه بقولهم (وما أضلنا الا المجرمون) ولا عبرة مطلقا بورود هذه الحيل فى كتب الفقه أو نسبتها الى بعض المذاهب ، فهذا كله لا يغنى من الحق شيئا .

(١٠) ارشادهم الى أن الرسول ﷺ اذ يحرم تشريف القبور واتخاذها مساجد وايقاد السرج عليها واقامة التماثيل ودعاء غير الله والنذر لغيره والطواف حول القبور والتمسح بها - وما الى ذلك من مفردات الشريعة - فهى حرام لا تحل أبداً الى يوم القيامة مهما حاول المبطلون أن يلبسوها من الحكم ما يوافق أهواءهم ، لحقائق الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالشرك الذى وصفه الله بأنه شرك لا يكون ايمانا ان فعله المنتسبون للأمة الاسلامية ، ثم يبقى شركا ان أتاه أهل الجاهلية ، فاصطلاح الناس على فعل شىء بعينه لايجعله حقا الا اذا كان حقا فى نفسه ، والكتاب حجة عليهم وليست أفعالهم حجة على الكتاب ، وان وافقهم عليها من فى الأرض جميعا .

كلمة لابد منها

دعونى أقولها فى صراحة . ورزقى على الله

إن كلمة الإسلام والإيمان قد انكمش مدلولها فى واقع الحياة بين الناس ، وأصبحنا لا نجد لها صدى إلا فى بطون الكتب وفوق المنابر ؛ أما الوفاء فى المعاملة ، أما حسن المعاشرة ؛ أما حق المجاورة ، أما المواقف الكريمة عند حدوث ما يشق على النفس ؛ فهذا شىء مضى أوانه وانقضى زمانه !!!

قد يشذ عن هذه القاعدة قليل نادر ، والنادر لا حكم له .

اكتفى الكثير - بل الأكثر - من الأشياء بأسمائها ، فمتى درج أحدهم على الأرض وله اسم من الأسماء الإسلامية فلا عليه بعد ذلك أن يفعل ما يشاء ، ويا بختنا بالنبى !!

أتريد شاهداً على ذلك ؟ روى البخارى أن ثلاثة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوا فى بيوت النبى (ص) عن عبادته التى يقوم بها بعيداً عن أعين الناس ، فكأنهم تقالوها - تأمل تقالوها . . يا ألله - وقالوا :

أين نحن من رسول الله . . إن رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله (ص) إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر . وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ؛ فمن رغب عن سنتى فليس منى . أخرجه الشيخان .

أعد هذا الحديث مرة بعد مرة ثم انظر إلى المسلمين فى هذا العصر !!

إنهم إذا طولبوا بالاقتداء برسول الله وأن يتخذوه أسوة لهم فى حياتهم قالوا :

أين نحن من رسول الله . نفس العبارة ونفس الألفاظ !! ولكن شتان بين معناها هناك ومغزاها هنا !! هناك الإيمان الذى خالطت بشاشته القلوب . وهنا الإيمان الذى لا يجاوز اللسان !!!

* * *

إن سنة الله فى عباده - سابقين ولاحقين - واحدة لا تتغير ولا تتبدل : من انحرف عن صراطه ؛ انصرف عن نصرته وإسعاده .

وشاهدنا على ذلك معاملته تعالى لأصحاب رسوله الكريم وهم من صفوة خلقه أجمعين: خرجوا إلى بدر بعد أن علموا أن أبا سفيان هرب بالتجارة والمال ؛ ولم يبق أمامهم

إلا قتال العدو لتكون كلمة الله هى العليا ؛ فكان خروجهم لله وحـــده ؛ فكان النصر الذى يتحدث به التاريخ إلى اليوم .

. . . ثم خرجوا إلى أحـد ، وعند تنظيم الصفوف أمر النبى (ص) بعض الجند بالوقوف فى مكان معين ؛ ليحمى ظهر الجيش من الهجوم ؛ وقال لهم لاتبرحوا مكانكم سواء كانت الدائرة لنا أو علينا ؛ ولـكن عند ظهور بوادر النصر أخذ بعض الجند بجمع الغنائم ؛ فبادر هؤلاء الذين قال لهم النبى (ص) لا تبرحوا مكانكم إلى ترك المكان ؛ ومشاركة إخوانهم فى جمع الغنائم ؛ فكانت النتيجة أن قريشاً عنـــد فرارهم رأوا ظهر الجيش خالياً من حماته ؛ فهجموا على المسلمين وكانت موقعة خسر فيها الإسلام نحو السبعين من أبطاله .

أرأيت ! ! ان الله أدّب صحابة رسوله (ص) حتى لا يغتر من بعدهم ؛ وتسير سفينة الحياة بهم فى طريق معروف المعالم والعواقب .

* * *

والإيمان الذى سنملأ بآثاره وثمراته صفحات هذا الكتاب إنما هو الإيمان الفطرى الساذج الذى لم تمتد إليه يد الفلسفة ؛ ولا صناعة علماء الكلام ؛ فإن الفلاسفة والمتكلمين يعيشون فى متاهات وضلالات لا نجاة لصاحبها إلا بفراقها . وهذا الرازى وهو من أكابرهم يقول :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها ... وسرحت طرفى بين تلك العوالم
فلم أر إلا واضعـــاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سـن نادم

* * *

وأرواحنا فى وحشـــة من جسومنا ... وحاصـــل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

أملى كبير أن تؤتى هذه الصفحات ثمارها من العودة إلى الإسلام من جديد .

حالة العرب قبل الإسلام وبعده

كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ؛ يسجدون فيها لكل ما خُلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ؛ لا يثيب الطائع بجائزة ؛ ولا يعذب العاصى بعقوبة ؛ ولا يأمر ولا ينهى ؛ فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ولا تأثير لها فى أخلاقهم واجتماعهم. كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدبير شئونها وتوزيع أرزاقها ؛ إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ؛ فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ؛ فكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له « من بنى هذا القصر العتيق ؟ » فيسمى ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ؛ وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم : فكانت معرفته مبهمة غامضة قاصرة مجملة لا تبعث فى نفوسهم هيبة ولا محبة .

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الخبيثة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ؛ ذات تأثير فى الأخلاق والاجتماع ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ؛ آمنوا بالله الذى له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ؛ آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ؛ له الخلق والأمر ؛ بيده ملكوت كل شيء ؛ يجير ولا يجار عليه إلى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه ؛ يثيب بالجنة ويعذب بالنار ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؛ يعلم الخبء فى السموات والأرض ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور إلى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه ؛ فانقلبت نفسيتهم بهذا الايمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيباً ؛ فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن ؛ تغلغل الإيمان فى أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره وجرى منه مجرى الروح والدم واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ؛ وغمر العقل والقلب بفيضانه ؛ وجعل منه رجلا غير الرجل وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ؛ ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ؛ ولا تزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ؛ وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق .

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملى على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والانصاف منها ؛ وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية حتى إذا جمحت السورة البشرية فى حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة ؛ وكان ذاك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون ؛ يحوّل هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ووخزاً لاذعا للضمير ؛ وخيالا مروعا لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ؛ ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحا تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة .

وقد حـــدثنا المؤرخون الثقات فى ذاك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا فى التاريخ الإسلامى الدينى ؛ فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن ماعز بن مالك الأسلمى أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله ؛ إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى » فردّه فلما كان من الغد أتاه فقال « يا رسول الله إنى قد زنيت » فرده الثانية ؛ فأرسل رسول الله إلى قومه فقال « أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئاً » ؟ فقالوا « ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى » فأتاه الثالثة ؛ فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه ؛ فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ؛ فلما كانت المرة الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت « يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى » وإنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يارسول الله لِم تردنى لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً ؛ فو الله إنى لحبلى ؛ قال « أما لا فاذهبى حتى تلدى ؛ قال فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة ؛ قالت هذا قد ولدته ؛ قال اذهبى فارضعيه حتى تطعميه ؛ فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ؛ فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ؛ فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر لها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ؛ فاستقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ؛ فسمع نبى الله سبه إياها فقال « مهلا يا خالد فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر فصلى عليها ودفنت . رواه مسلم

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ؛ يملك نفسه النزوع أمام المطامع والشهوات الجارفه ؛ وفى الخلوة والوحدة حيث لايراه أحد ؛ وفى سلطانه ونفوذه حيث لايخاف أحداً ؛ وقد وقع فى تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العفاف عند المغنم ؛ وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ؛ وما ذاك

إلا نتيجة رسوخ الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان .

حدث الطبرى قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحُق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ؛ ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ؛ فقالوا هل أخذت منه شيئا ؟ فقال أما والله لولا الله ما أتيتكم به ؛ فعرفوا أن للرجل شأنا ؛ فقالوا من أنت ؟ فقال لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ؛ ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه . فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس . تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦

وكان هذا الإيمان بالله وحده قد رفع رأسهم عالياً ؛ أقام صفحة عنقهم فلم تنحن لغير الله أبداً ؛ لا لملك جبار ولا لحبر من الأحبار ؛ ولا لرئيس دينى ولا دنيوى ؛ وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته ؛ فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة ، فإذا رأوا الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعم وزينة وزخرف ؛ فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس .

عن أبى موسى قال : انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين ؛ وقد قال له عمرو وعمارة إنهم لا يسجدون لك ؛ فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان ؛ اسجدوا للملك فقال جعفر لا نسجد إلا لله . البداية ج ٣

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة ؛ وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ؛ وقد جلس على سرير من ذهب ؛ ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ؛ ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ؛ ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ؛ وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ؛ فقالوا له : ضع سلاحك ؛ فقال إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت ؛ فقال رستم ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ولقد بعث الإيمان بالآخرة فى قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنينا غريبا إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة ، بمثلوا الآخرة ، وبحلت لهم الجنة بنعمائها كأنها رأى عين

فطاروا إليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شيء . تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب الكعبة إنى أجد ريحها من دون أُحد ، قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون ، فما عرفه أحد الا أخته ببنانه . متفق عليه

قال رسول الله (ص) يوم بدر : قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض . فقال عمير بن الحمام الأنصارى يا رسول الله : جنة عرضها السموات والأرض ؟ بخ بخ . قال فقال رسول الله (ص) ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله الا رجاء أن أكون من أهلها . قال فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل . رواه مسلم

عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال : سمعت أبى وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله (ص) ان أبواب الجنة تحت ظلال السيوف ، فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أأنت سمعت هذا من رسول الله ؟ قال نعم . فرجع الى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام . ثم كسر جفن سيفه فألقاه . ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب حتى قتل .

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج . وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله (ص) اذا غزى . فلما توجه الى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه ان الله قد جعل لك رخصة . فلو قعدت ونحن نكفيك . وقد وضع الله عنك الجهاد . فأتى عمرو بن الجموح رسول الله (ص) فقال يا رسول الله إن بنى هؤلاء يمنعونى أن أخرج معك ووالله انى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله (ص) أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة . فخرج مع رسول الله فقتل يوم أحد شهيدا .

قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب الى النبي (ص) فآمن به واتبعه

فقال أهاجر معك فأوصى به بعض أصحابه . فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقسمه وقسم للأعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه فقال ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله (ص) فأخذه فجاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ما هذا يارسول الله ؟ قال قسم قسمته لك ، قال ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى ههنا ، وأشار الى حلقه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله ليصدقك . ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقتول ، فقال أهو هو ؟ قالوا نعم فقال صدق الله فصدقه .

وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك . والأخذ والترك . والسياسة والاجتماع . لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام . ولا ينخرطون فى سلك ، يسيرون على الأهواء . ويركبون العمياء . ويخبطون خبط عشواء ، فأصبحوا الآن فى حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها . واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهى ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهى استسلاماً كاملا ووضعوا أوزارهم وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم . وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا فى الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به . لا يحاربون ولا يصالحون الا بإذن الله . ولا يرضون ولا يسخطون . ولا يعطون ولا يمنعون . ولا يصلون ولا يقطعون الا بإذنه ووفق أمره .

ولما كان القوم يحسنون اللغة التى نزل بها القرآن وتكلم فيها الرسول ، عرفوا الجاهلية وعرفوا الاسلام . وعرفوا أنه خروج من حياة الى حياة ومن مملكة الى مملكة ومن حكم الى حكم . أو من فوضوية الى سلطة . ومن حرب الى استسلام وخضوع . ومن الأنانية الى العبودية . فإذا دخلوا فى الاسلام . فلا افتيات فى الرأى . ولا نزاع مع القانون الإلهى ولا خيرة بعد الأمر ولا مشاقة للرسول ولا تحاكم الى غير الله . ولا اصدار عن الرأى . ولا تمسك بتقاليد وعادات . ولا ائتمار بالنفس ، فكانوا اذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها

وتقاليدها إلى الاسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه ، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الاسلام من غير تأن .

همّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه قال له رسول الله (ص) أفضالة ؟ قال نعم يارسول الله قال ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال لاشيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النبي (ص) ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلىّ منه ، قال فضالة فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت يأبى الله عليك والاسلام . زاد المعاد ج ٢ ص ٢٣٤

إن هذا الايمان بالله والرسول واليوم الآخر ، والاسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة وردّ كل فرد فى المجتمع البشرى إلى موضعه لا يقصر عنه ولا يتعداه ، وأصبحت الهيئة البشرية باقة زهر لا شوك فيها ، أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى . يقول النبى صلى الله عليه وسلم « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، وليفتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان » تفسير ابن كثير سورة الحجرات .

وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى » رواه ابن أبى حاتم . ويقول صلى الله عليه وسلم « إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى » رواه الامام أحمد

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » ويسمعه الناس يقول فى ما يناجى به ربه فى آخر الليل « وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » رواه أبو داود

الايمان وأثره فى الحب والطاعة

عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم طبائع النفوس وغرائزها، فأخذ يسوسها فى رفق، ويعاملها كواحد منهم، فأحبه رجال أمته وأطاعوه حبا وطاعة لم يسمع بمثلها فى تاريخ العشاق والمتيمين، ووقع من خوارق الحب والاضمحلال والتفانى فى سبيل طاعته وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله، ولن يحدث بعده.

وُطىء أبو بكر بن أبى قحافة فى مكة يوما بعدما أسلم وضُرب ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبو بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته، فتكلم آخر النهار فقال: مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير انظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله (ص)؟ فقالت: والله مالى علم بصاحبك، فقال اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك الى ابنك، قالت نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله ان قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وانى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال فما فعل رسول الله (ص)؟ قالت هذه أمك تسمع! قال فلا شىء عليك منها، قالت سالم صالح، قال أين هو؟ قالت فى دار الارقم، قال فإن لله علىّ أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا، أو آتى رسول الله (ص) فأمهلتها حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله. البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠

خرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت ما فعل رسول الله؟ قالوا خيراً، هو بحمد الله كما تحبين! قالت أرنيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك تهون. رواه ابن اسحق إمام المغازى. ورواه البيهقى مرسلا

رفعوا خبيباً رضى الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه : أتحب محمداً مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها فى قدمه ، فضحكوا منه . البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣

قال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد ابن الربيع ، فقال لى إن رأيته فاقرأه منى السلام وقل له يقول لك رسول الله كيف تجدك ؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة بالسيف ورمية بسهم . فقلت يا سعد : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله السلام ، وقل له يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه ، من وقته . زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤

وترس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك . زاد المعاد ص ١٣٠

ومص مالك الخدرى جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنقاه ، قال له مجه . قال والله ما أمجه أبداً . زاد المعاد ص ١٣٠

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله (ص) طوته عنه ، فقال يابنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ فقالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس . زاد المعاد ص ٢١٦

وقال عروة بن مسعود الثقفى لأصحابه بعدما رجع من الحديبية : أى قوم والله لقد وفدت على الملوك . على كسرى وقيصر والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً . والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له . زاد المعاد ج ٢ صفحة ١٧٥

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود (الحب) المتطوعة، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قوتهم، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر (إنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فأظعن حيث شئت وصِل حبل من شئت واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واعطنا ماشئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك لسرنا معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك) زاد المعاد ص ١٣٠

وكان من شدة طاعتهم له أنه صلى الله عليه وسلم نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه، وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب.

يقول كعب: ونهى رسول الله (ص) عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى أعرف - الى أن قال - حتى اذا طال علىّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى. وأحب الناس الىّ، فسلمت عليه فو الله ما رد علىّ السلام، فقلت له يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار. متفق عليه

وكان من طاعته أيضا وهو فى موضع عتاب وجفوة - أن رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه ويقول له: ان رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقال أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال لا بل اعتزلها فلا تقربنها، فقال لامرأته: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر.

وكان من حبه للرسول (ص) وايثاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه، وتلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب، ولكنه يرفض ذلك. قال: بينما أنا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون

له الىّ حتى جاءنى فدفع الىّ كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه (أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأتها : وهذه من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها)

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب . فعن أبى بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر اذ قمت حتى آتى رسول الله (ص) فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر (ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) الى آخر الآيتين (فهل أنتم منتهون) قال : وبعض القوم شربته فى يده شرب بعضا وبقى بعضا فى الاناء ، فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا مافى باطيتهم ، فقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا . تفسير الطبرى ج ٧

ومن غرائب الطاعة للرسول وإيثاره على النفس والأهل والعشيرة ، ما روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبى :

روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله عبد الله بن عبد الله بن أبىّ قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال ما يقول أبى بأبى أنت وأمى ؟ قال يقول (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) فقال : فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز ، وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله ، وأن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر منى ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتينهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا) .

فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القائل ، لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله (ص) والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً الا بإذن من الله ورسوله ، فقال للخزرج : ابنى يمنعنى بيتى ، فقال والله لا يأويه أبداً الا بإذن منه ، فاجتمع اليه رجال فكلموه ، فقال والله لا يدخله الا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال ، اذهبوا اليه فقولوا له خله ومسكنه ، فأتوه ، فقال : أما اذ جاء أمر النبى فنعم .

دخل الايمان إلى قلوب الأمة العربية الضائعة والى قلوب أناس من غيرها ، فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر ، وسوانح التاريخ ، فأصبح عمر الذى كان يرعى الابل لأبيه الخطاب وينهره ، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة ، لا يتبوأ منها المكانة العليا ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً ، اذا به يفاجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ويدحر كسرى وقيصر عن عرشهما ، ويؤسس دولة اسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما فى الادارة وحسن النظام ، فضلا عن الورع والتقوى والعدل الذى لا يزال فيه المثل السائر .

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان ، انحصرت كفاءته الحربية فى نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش فى المعارك القبلية ، فينال ثقتهم وثناءهم ، ولم يحرز الشهرة الفائقة فى نواحى الجزيرة ، اذا به يلمع سيفا الهيا لا يقوم له شىء الا حصده ، وينزل كالصاعقة على الروم ، ويترك ذكراً خالداً فى التاريخ .

وهذا أبو عبيدة كان موصوفا بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين ، اذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ، ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء يلقى عليها نظرة الوداع ويقول : سلام على سورية سلاما لا لقاء بعده .

وهذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وترسله فى سفارتها الى الحبشة لتسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائبا ، اذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة .

وهذا سعد بن أبى وقاص ، لم نسمع به فى التاريخ العربى قبل الاسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة ، اذا به يتقلد مفاتيح المدائن وينيط باسمه فتح العراق وايران .

وهذا سلمان الفارسى كان ابن موبذان فى احدى قرى فارس ، لم يزل ينتقل من رق الى رق ومن قسوة الى قسوة ، اذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الامبراطورية الفارسية التى كان بالأمس أحد رعاياها .

وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه ، فيراه الناس يسكن فى كوخ ويحمل على رأسه الأثقال .

وهذا بلال الحبشى يبلغ من فضله وصلاحه مبلغا يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد .

وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعا للخلافة يقول : لو كان حياً لاستخلفته . وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة ، وفيه مثل جعفر ابن أبي طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل أبي بكر وعمر .

وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ ابن جبل وأبيّ بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين .

وهذا علي بن أبي طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله ابن عباس قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم من علماء العالم الذين يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبرّ الناس قلوبا وأعمقهم علما وأقلهم تكلفا ، يتكلمون فينصت الزمان ، ويخاطبون فيسجل قلم التاريخ .

ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة ، وسخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشري أحسن منها اتزانا ، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها ، أو كالمطر لا يدرى أأوله خير أم آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية ، كتلة هي في غنى عن العالم ، وليس العالم في غنى عنها ، وضعت مدنيتها وأسست حكومتها ، وليس لها عهد بها ، فلم تضطر إلى أن تستعير رجلا من أمة أو تستعين في إدارتها بحكومة ؛ أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة .

تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التي لم يمض عليها إلا بعض العقود — كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح — برجل من الرجال الأكفاء ، فكان منها الأمير العادل والخازن الأمين والقاضي المقسط ، والقائد العابد والوالي المتورع ، والجندي المتقي ، وكانت بفضل التربية الدينية التي لا تزال مستمرة وبفضل الدعوة الاسلامية التي لا تزال سائرة ، مادة لا تنقطع ومعينا لا ينضب ، وهنا ظهرت المدنية الاسلامية بمظهرها الصحيح .

المعركة الفاصلة

بين الحق والباطل

« فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً، قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. قَالَ: آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ، وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى. قَالُوا: لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى.

« وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً، لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى.

ليس من همنا هنا سرد قصة موسى وفرعون ولا تحقيق ما فى القصة من ألفاظ وبلاغة ، فإن ذلك مشغلة عما فيها من العبر ، وإنما الغرض تصوير ما فى هذه الآيات من آثار الايمان عندما يستقر فى القلب عن دليل واقتناع ، فإنه لا يبالى بما يترتب عليه من تهديد ووعيد .

ونستطيع أن نشير فى إيجاز إلى دور العلم فى إيمان هؤلاء السحرة ، وأنه كان عاملا قوياً فى إيمانهم ، ولولاه لظلوا على ما كانوا عليه كسائر العامة . فهؤلاء السحرة كانوا فى خدمة الطاغية ، وجاءوا لمغالبة موسى وتثبيت ملك فرعون ، ولكنهم حينما لاحت لهم الآيات عرفوا الحق فآمنوا به عن حب ويقين .

وهكذا يفعل الإيمان الصحيح بأهله ، يستعذبون العذاب فى سبيل عقيدتهم ، أما الإيمان التقليدى الموروث فإنه لا يلبث أن يذوب عند بوادر الامتحان .

وقد مرَّ بك — وسيأتيك — عشرات من الوقائع الثابتة فى الصبر والاحتمال بما لا مجال فيه لوهم أو خيال .

« فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ، قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله ، وتصادف « الزر » الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام ، إنها لمسة الايمان للقلب البشرى تحوله فى لحظة من الكفر إلى الايمان .

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب ؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ، وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان :

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عـــذابا وأبقى »

(آمنتم له قبل أن آذن لكم) .. قولة الطاغية الذى لا يدرك أنهم هم أنفسهم

لا يملكون ، وقد لمس الايمان قلوبهم ، أن يدفعوه عنها ، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

(إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) .. فذلك سر الاستسلام فى نظره ، لا أنه الايمان الذى دب فى قلوبهم من حيث لا يحتسبون ، ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال .

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاة ، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل) ..

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة ، قوة الوحوش فى الغابة ، القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى)

ولكنه قد فات الأوان ، كانت اللمسة الايمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل ، فإذا هى قوية قوية ، وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة ، وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة ، وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالى أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل . ولا الى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه :

(قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى)

إنها لمسة الايمان فى القلوب التى كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق اليه المتسابقون : فإذا هى بعد لحظة تواجهه فى قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه :

(قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ..) فهى أعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى (فاقض ما أنت قاض) ودونك وما تملكه لنا فى الأرض (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) فسلطانك مقيد بها ، وما لك من سلطان علينا فى غيرها ، وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا ، وما تملكه لنا

من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل فى الحياة الخالدة أبداً .
(إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانا ، فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا (والله خير وأبقى) خير قسمة وجوارا ، وأبقى مغنما وجزاء ، ان كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلى :

(انه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار . وذلك جزاء من تزكى)

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى ، فها هى ذى صورة لمن يأتى ربه مجرما هى أشد عذابا وأدوم (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حى فيتمتع ، انما هو العذاب الذى لا ينتهى الى موت ولا ينتهى الى حياة . وفى الجانب الآخر الدرجات العلى . جنات للإقامة ندية بما يجرى تحت غرفاتها من أنهار (وذلك جزاء من تزكى) وتطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الايمان القوية ، وباستعلاء الايمان الواثق ، وبتحذير الايمان الناصح ، وبرجاء الايمان العميق .

ومضى هذا المشهد فى تاريخ البشرية اعلانا لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع ، فى المثوبة والخوف من السلطان ، وما يملك القلب البشرى أن يجهر بهذا الاعلان القوى الا فى ظلال الايمان .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

انه مشهد انتصار الحق والايمان فى واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارهما فى عالم الفكرة والعقيدة ، فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ، وانتصار العقيدة فى قلوب السحرة على الاحتراف ، وانتصار الايمان فى قلوبهم على الرعب والرهب ، والتهديد والوعيد ، فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والايمان على الطغيان فى الواقع المشهود ، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر فى عالم الواقع الا بعد تمامه فى عالم الضمير ، وما يستعلى أصحاب الحق فى الظاهر الا بعد أن يستعلوا بالحق فى الباطن . ان للحق والايمان حقيقة متى

تجسمت فى المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس فى صورتها الواقعية . فأما اذا ظل الايمان مظهراً لم يتجسم فى القلب ، والحق شعارا لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقة لا مقابل لها ولا كفاء فى مظهر الحق والايمان . يجب أن تتحقق حقيقة الايمان فى النفس وحقيقة الحق فى القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التى يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان .. وهذا هو الذى كان فى موقف موسى — عليه السلام — من السحر والسحرة ، وفى موقف السحرة من فرعون وملئه ، ومن ثم انتصر الحق فى الأرض كما يعرضه هذا المشهد فى سياق السورة :

(ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى ، فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخش ، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى)

ولا يذكر السياق هنا ما الذى كان بعد مواجهة الايمان للطغيان فى موقف السحرة مع فرعون ، ولا كيف تصرف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه ، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها ، انما يعقب بهذا المشهد ، مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعى ، وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا فى مشهد الخروج والوقوف امام البحر - كما يطيل فى سور أخرى - بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة ، لأن مقدماته كانت فى الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله - بنى اسرائيل - ليلا ، فيضرب لهم طريقا فى البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل — فنعرضه نحن كذلك كما جاء — مطمئنا الى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده . ولا يخشى من البحر الذى اتخذه له طريقا يابساً فيه ، ويد القدرة التى أجرت الماء وفق الناموس الذى أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هــدى) . .

هكذا يجمل السياق كذلك ما غشى فرعون وقومه ، ولا يفصله ، ليبقى وقعه فى

فى النفس شاملا مهولا ، لا يحدده التفصيل ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال فى الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر ، وكلاهما ضلال يؤدى إلى البوار .

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ما حدث فى هذا الموضع ، كى نتابع السياق فى حكمة الاجمال ، إنما نقف أمام العبرة التى يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه فى القلوب .

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الايمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الايمان فيها شيئا سوى اتباع الوحى والسرى ليلا ، ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين فى عالم الواقع .. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة وفرعون وجنده يملكون القوة كلها ، فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا ، هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة ، ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الايمان فى نفوس الذين لا يملكون قوة سواها . بعد أن استعلن الايمان فى وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ، لا يرهب وعيده ولا يرغب فى شىء مما فى يده .. يقول الطغيان (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل) فيقول الايمان (فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) .. عندما بلغت المعركة بين الايمان والطغيان فى عالم القلب إلى هذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الايمان .

وعبرة أخرى . .

إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون ، وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لادارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفا . فأما حين استعلن الايمان ، فى قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب مرفوعو الرءوس يجهرون بكلمة الايمان فى وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ، ودون اتقاء للتعذيب ، فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لادارة المعركة ، وإعلان النصر الذى تم قبل ذلك فى الأرواح والقلوب . .

هذه هى العبرة التى يبرزها السياق بذلك الاجمال ، وبتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات ليستيقنها أصحاب الدعوات ، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض ، والطغاة يملكون المال والجند والسلاح .

ضحايا الاخدود

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

أراد رب العزة سبحانه أن يثبت المؤمنين السابقين من هذه الأمة ، ويحملهم على الصبر على ما ينالهم من أذى أهل مكة ، وعلى ما يلقون من الشدائد والمحن فى سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم والثبات عليها ، وأن يذكرهم بما جرى على من سبقهم من الأمم وما أصاب من تقدمهم من أنصار الحق من التعذيب على الايمان ، وإلحاق ألوان الأذى والنكال ، وما كانوا يقابلون به ذلك من الصبر الجميل ، والاحتمال الرزين والثبات الوقور ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم ليسوا خيراً عند الله من أولئك ، بل هم بمثابتهم جديرون بأن يمسهم العذاب ويذوقوا وبال أمرهم ، ويقال فيهم : قتل المكذبون من قريش ، كما قيل : قتل أصحاب الأخدود ، كما أراد سبحانه أن يوجه الكافرين المنكرين إلى النظر فى بعض آثار قدرته ، وعلمه وحكمته ، وإلى بعض آياته فى الآفاق مع الاشارة إلى البعث الذى ينكرونه ويستبعدونه ، ليقروا بوجوده تعالى ، ويعترفوا بوحدانيته ، حتى إذا آمنوا بقدرته تعالى المشتملة فى روائع الخليقة وبدائع الوجود لم يسعهم إلا التسليم بالبعث والايمان بالنشور ، فأنزل هذه السورة الكريمة مفتتحا لها بقوله سبحانه (والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود) يقسم سبحانه بالسماء فى عظامتها واتساع أكنافها وانفراج نواحيها وسعة آفاقها وتجلى روائع آياته فيها ، وعجز الانسان عن الاحاطة بأقطارها ، أو البلوغ إلى أديمها ، ثم يصفها

سبحانه بأنها ذات البروج ؛ والبروج فيما كان العرب يعرفون جمع برج، وهو مجموعة من النجوم لها شكل خاص محفوظ على الدوام لا يتغير ولا يتبدل . تسير دائما أبداً بسرعة واحدة لا يتخلف بعضها ولا يسبق بعض، كأنها مسمورة على لوح على ما بينها من شاسع الأبعاد ، وملايين الأميال .

بعد أن أقسم رب العزة بما أقسم ليفبه إلى آثار وجوده وقدرته وعلمه وحكمته أراد أن يأتى بما يدل على جواب القسم المحذوف ، وبما يكون فيه عزاء للمؤمنين ، يحملهم على الصبر على ما يقاسون من المحن والشدائد وما يلقون من أعدائهم الكفار فقال تعالى (قتل أصحاب الأخدود[1]) وهذا تعبير دعائى ولفظ معروف فى كلام العرب إذا أرادوا أن يدعوا على أحد بأشنع مايتمنون له من الشر قالوا : قتل فلان أى قتله الله وأهلكه ، وقد جرى القرآن الكريم على أساليب العرب ومتعارف تعبيرها ولغة خطابها ، فأتى من التعبير بمثل ما كانوا يأتون ، غير أن له فى كلام الله تعالى معنى غير الذى كانوا يعنون ، وهذه العبارة أشبه بأن تكون اخباراً بأمر كونى وقع به القول على أصحاب الأخدود ، أى قلنا لهم : اهلكوا ، ولا هلاك أشد من اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى .

وقد قال المفسرون فى أصحاب الأخدود أقوالا كثيرة ، ولعل أشبهها بالصواب وأقربها إلى الحق قول من قال : إنهم ذو نواس الحميرى وأعوانه ، وكان ذو نواس قيلا من أقيال اليمن (ملوكهم) وكان يدين باليهودية ويتعصب لها ، وقد انتهى إليه أن النصرانية تسربت إلى أهل نجران إحدى قرى اليمن على يد مسيحى من الذين اعتنقوا المسيحية فى إبان ظهورها ، وقد أنبأهم أن المسيح الذى بشرت به التوراة قد أرسل فاتبعوه ، فأتاهم ذو نواس فى صحبه وأعوانه ليردهم إلى اليهودية ، وأمر بأن يحفر أخدود وأن يوضع فيه الحطب الجزل وأن تشعل فيه النار ، ثم دعاهم وخيرهم بين العودة إلى اليهودية مع السلامة والرضا والكرامة ، وبين البقاء على المسيحية مع الالقاء فى النار . أما ضعاف الايمان وخائروا العزائم فقد ارتدوا

---

(١) الأخدود شق مستطيل فى الأرض .

وأما أقوياء الايمان الذين خالط الايمان شغاف قلوبهم وامتزج بلحومهم ودمائهم، فأبوا أن يرتدوا، وآثروا الحريق بنار الدنيا على الحريق بنار الآخرة، وكذلك الايمان إذا خالطت بشاشته القلوب يهون على صاحبه أن يضحى بحياته وأن يحتمل أقسى ما يسلط عليه من ألوان العذاب فى سبيل الاحتفاظ بعقيدته والاستمساك بأهداب دينه، ولا جرم أن هذه القصة كانت مستفيضة عند العرب يتحدثون بها فى أسمارهم ويقصونها فى مجالسهم، ومن أجل ذلك ذكر الله بها المؤمنين ليكون لهم أسوة حسنة فى هؤلاء الذين آثروا الموت احتراقاً بالنار مع الثبات على دينهم والاحتفاظ بعقيدتهم على الحياة والسلامة مع الردة والخروج من دين الحق.

ثم أراد سبحانه أن يبين المراد من الأخدود فقال (النار ذات الوقود) وقد وصف سبحانه النار بأنها ذات الوقود، أى صاحبة الحطب الجزل الذى أعد لها لتوقد به، فهى نار هائلة رهيبة مرعبة بشعة تقشعر لمنظرها الأبدان وترتعد الفرائص (إذ هم عليها قعود) أى لعن الله أصحاب الأخدود حين كانوا قاعدين على شفير هذا الأخدود الممتلىء بالنار جالسين على حفافى هذه النار الموقدة، وقلوبهم القاسية المتحجرة لا ترحم هؤلاء الضعفاء وهم يئنون من حرها، وتتلوى أجسادهم من فرط الألم، وتسيل شحومهم فتزيد النار توهجا واشتعالا.

(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) وهم يشاهدون ما يكابد هؤلاء المؤمنون، وينظرون اليهم وهم يتنزّون ألما، فلا يشيحون بوجوههم، ولا يغمضون أعينهم لأن قلوبهم القاسية لا ينفذ اليها شعاع من أشعة الرحمة، ولا تهب فيها نسمة من نسمات الحنان، فلا يتألمون لما يصيب اخوانهم فى البشرية، بل يتلذذون بمشاهدة عذابهم والاستماع الى تألمهم وأنينهم.

. . .

لقد لقى السابقون الأولون من المؤمنين من ألوان العذاب وأفانين الآلام ما لقوا فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، وما لانت لهم قناة، وحسبك ما لقى آل ياسر حين كان كفار مكة يعذبونهم بالنار، فيمر بهم رسول الله (ص) فيقول لهم: صبراً يا آل ياسر، وما لقى بلال بن أبى رباح حين كان يلقيه سيده فى الرمضاء ويضع على

صدره حجراً ثقيلا ويقول له : هكذا تكون حتى تكفر بمحمد ، وما لقى أبو بكر الصديق نفسه ، وما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى أيديهم وألسنتهم ، وإنا لنجد دعاة الحق والحرية فى كل زمان ومكان عرضة للأذى يصيبهم من أنصار الضلالة ، ودعاة الفتنة وأسرى الجمود على حمق الآباء وجهالة الأجداد ، وإنا لنرى الأشرار يبسطون إلى الأخيار أيديهم بالسوء ، أو يسلطون عليهم ألسنتهم البذيئة أو أقلامهم الوبيئة ، فى كل جيل وقبيل ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

° ° °

(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أى أن كل ذنبهم الذى عابوه عليهم وكل حوبهم الذى أنكروه منهم أنهم استعملوا عقولهم ، ونظروا فى آيات ربهم وصدقوا رسوله ، وهم جديرون أن يؤمنوا بربهم لأنه عزيز قاهر غالب ، قادر على أن ينتقم من أعدائه وممن لا يؤمنون به ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولأنه يثيب أولياءه المؤمنين به ويجزيهم خير الجزاء بصبرهم وثباتهم ويؤيدهم بنصره ، ثم بيّن سبحانه موجبات الإيمان به فقال (الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد) فإذا كانت السموات والأرض فى قبضته وملكته وجميع من فيهن وما فيهن تحت تصرفه فكيف لا يؤمن به العاقل الذى يرجو ثوابه ويخشى عقابه ، وفى قوله تعالى (والله على كل شىء شهيد) من التهديد والوعيد لهؤلاء الظلمة مالو اصطنعوا الأناة والروية وتدبروه لكان رادعا لهم عن لجاجتهم فى الطغيان وتماديهم فى العدوان ، وفيه من العزاء للمؤمنين ما يشعرهم بأن الله مطلع على كل شىء ولا يفوت علمه شىء ، فهو عليم بمـــا يحتملون ويكابدون ، مطلع على ما يعمل الظالمون ، وسيجزى المؤمنين بإيمانهم وصبرهم واحتمالهم والكافرين بكفرهم وطغيانهم وما يسلطونه على المؤمنين من أذاة أيديهم وألسنتهم ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

الإيمان وأثره عند المغاضبة

روى البخارى الحديث الآتى عن أبي الدرداء قال : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي (ص) « أما صاحبكم فقد غامر » .

وجاء أبو بكر فسلم وقال يخاطب الرسول الكريم : إنى كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسأت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لى فأبى علىّ فأقبلت إليك !

فقال النبي (ص) يغفر الله لك يا أبا بكر (قالها ثلاثاً)

ثم إن عمر بن الخطاب ندم ، فأتى منزل أبو بكر فسأل : أثمّ أبو بكر ؟ فقالوا لا ، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم ، فجعل وجه النبي (ص) يتمعّر (١) حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه وقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم (قالها مرتين) فقال النبي (ص) إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدق وواسانى بنفسه وماله فهل أنتم تاركو لى صاحبي (قالها مرتين) فما أوذى أبو بكر بعدها !

هـذا هو الإيمـان ، وهذا أثره ، أما نحن الآن فعندما ينزغ الشيطان بينى وبين أخى فكل منا يركب رأســه ، وإذا تدخل أحد للصلح فإن كلا منا يتمسك بموقفه ، وبعلى شروطه ، ويعامل أخاه كما يعامل الأعـداء ، وينسى كل منا ما بينه وبين أخيه من سابق الود والصفـــاء .

﴿ أثر الإيمـان عند وقوع شيء بين الزوج والزوجة ﴾

عن سهل بن سعد الساعدى قال جاء النبي (ص) إلى بيت فاطمة فلم يجد علياً ، فقال « أين ابن عمك ؟ » فقالت كان بينى وبينه شيء فغاضبنى فخرج ، فقال النبي لإنسان « انظر أين هو » فقال هو فى المسجد راقد ، فجاء وهو مضطجع وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب ، فجعل النبي (ص) يقول : قم يا أبا تراب ، قم يا أبا تراب .

قال سهل وما كان له اسم أحب إليه منه . أخرجه الشيخان .

هـذا درس بليغ يعجز القلم عن وصفه ، فهو يصور لنا فى غير تكلف حياة البيت المسلم وما يجب أن يكون عليه الرجل والمرأة ووالدها من الأخلاق الحيدة التى عليها عمار البيت وهنائه ، والتى ما شقى البيت المسلم إلا بسبب تخليه عنها .

---

(١) يتمعر ، يتغير

فهذه زوجة أتت بما أغضب منها زوجها ، شأنها فى ذلك شأن كل أنثى فطرها الله على ذلك ، فماذا يعمل الرجل المؤمن العارف بالطبائع ؟ يترك لها هذه الفرصة حتى تهدأ ولا يلقى على النار ما يزيد اشتعالها، فسرعان ما تنطفىء ويحل الوئام محل الخصام

وهذا سيد الخلق يذهب ليزور ابنته وزوجها فى بيتهما ، فلما لم يجده سألها عنه فأنبأته انه وقع بينهما شىء مما يقع بين الرجل وزوجه فخرج وغضب ، فذهب صلى الله عليه وسلم إليه بنفسه ولاطفه وصالحه وأرجعه إلى أهله ، وذلك كله دون أن يتدخل رسول الله بين الرجل وزوجه ، فلم يسأل عما وقع منهما ، ولم يدافع عن ابنته ولم يأخذها إلى بيته حتى يحضر زوجها صاغراً .

وكأنى ببعض الناس يقول : هذا زمن قد مضى ومضى أهله ، أما اليوم فقد حدثت تقاليد وعادات أخرى ، ونسوا انه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

الايمان يأتى بالخوارق

لقد كان من أعجب الأمور إن لم يكن من خوارقها أن أبا بكر الصديق أمكنه عندما تولى الخلافة أن يتغلب على أعداء الإسلام من العرب على الرغم من أن جيوشهم كانت أضعاف جيشه ، وعتادهم أكثر من عتاده ، ومواقعهم أقوى تحصينا من مواقع جيوشه ، فى عام واحد أو أكثر قليلا !

بل هناك ما هو أعجب وأغرب ألا وهو أن هذا الرجل الهادىء الوديع ، قد انقلب إلى ما يشبه الصواعق تمحق كل ما يقابلها ، والتيارات العنيفة تجرف كل ما يعترضها ، لقد اكتسح مسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد ، وسجاح ومن وراء هذه الأسماء من قبائل وأذناب ، ولم يقف عند هذا الحد ليستريح ويريح جيوشه ، بل قذف بها إلى دولتى الدنيا على ذلك العهد ـ وهما الفرس والروم ـ تدك معاقلهما ، وتنتهك أراضيهما وتتوغل فيها ، تتقدمها الإرهاصات ، وتحيط بها الانتصارات ، ويحف بها المجد من كل جانب .

لقد كانت خلافة أبى بكر أقل من ثلاثة أعوام ، ولكن ما أنجزه فيها من الأعمال الجسام كان من شأنه أن يستغرق عشرات الأعوام ، ولكن الله بارك فيه وعليه ، وجعل أيامه شواهد خالدة على قوة العزيمة ، ومضاء الهمة والإقدام ، وما يمكن أن يثمره الإيمان الصحيح .

عمر بن الخطاب

يبهر الدارس لسيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر باهر حقاً ذلك هو : كيف تسنى لهذا الرجل الناشىء فى حضانة الجاهلية ، المنتمى إلى بيئة اجتماعية لم تمسها ثقافة ولا هذبتها حضارة ـ أن يبلغ مابلغ فى مجال السياسة والتدبير من تفوق مبرز بل نبوغ معجز

إن هـذا الرجل الذى جاء بالعجائب فى سياسته ، لم ينشأ فى بيت ملك ، ولا ورث تقاليد بيئة سياسية، فكيف تهيأ له أن ينشىء دولة من الطراز الأول فى النظم والإحكام واستقرار الأمور وسداد التوجيه ؟ !

إنها الفطرة السليمة لاقت فى كنف النبوة مجالا صالحاً فترعرعت ، وإنه الإيمان الصادق بتعاليم الإسلام ومبادئه القويمة ؟ ! ومعها نور من الله يضى له طريقه ، وقبس من حكمته يشرح صدره لمحاسن الأمور ، ويجنبه مساوئها .

لما آلت إليه الخلافة اشتدت هيبة عمر فى الناس حتى خافه الصغار واتقاه الكبار ، وراحت مهابته تلاحق رجال الدولة فى كل مكان ، وكان كل واحد منهم يحسب حساب الخليفة فى كل عمل يقارفه حتى كأنه على رأسه ، ومن آيات الله الكبرى أن المسلمين قد قبلوا هذه السياسة الحازمة من غير برم أو كراهية ، ذلك أنهم كانوا موقنين بأن خليفتهم يخشى الله فيهم ، ولايقدم على ظلم أحد من الرعية ، ولا يتخذ من سلطانه سبيلا للاستعلاء عليهم ، أو إيثار نفسه أو أى واحد من قرابته بخير دونهم .

حدث مرة أن أرسل إليه أحد الأمراء قماشاً فوزعه على الصحابة بالتساوى ، ولم يكن نصيب الفرد يكفى لعمل ثوب كامل منه ، ولكن أحد المسلمين شاهد عمر بعد ذلك وهو يلبس ثوباً كاملا من هـذا القماش فاحتج عليه ، فهتف عمر بابنه عبـد الله ، وقال : أجب ياعبد الله ، فوقف وأخبر المحتج أنه تنازل لأبيه عن نصيبه من هذا القماش وبذلك تهيأ له أن يتم ثوبه منه !!

وهكذا كان المسلمون سعداء بعمر، يستقبلون تدابيره الشديدة بالرضا والقبول ، لأنهم مؤمنون بصدقه موقنون بعدله ، وأنه لا يريد من الملك شيئاً لنفسه أو لقرابته .

وهكذا استقر الأمر وساد النظام ، ومضت أمور الدولة على خير ما يرام ، وذهبت الدعوة الإسلامية كل مذهب ، وكان الفضل فى كثير من الفتوحات وإقبال الناس على الدين لما شهر عن عمر نفسه ـ عند أهل العراق والشام الأصليين ـ من العدل والزهد

والاستقامة . لقد كان عمر لا يفتأ يذكر ولاة المسلمين فى الأمصار التى فتحت عليهم بحق مواطنى هؤلاء الامصار الأولين من غير المسلمين عليهم ووجوب رعايتهم وتمكينهم من الأسباب التى تكفل لهم حياة صالحة مطمئنة ، ولم ينس أن يؤكد هذا المعنى فى الوصية التى أوصى بها وهو يحتضر !

احتبس المطر عن الحجاز فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فاحترق المرعى وهلكت الماشية وجاع العرب ، إذ كان غـــذاؤهم قائما على ألبانها ولحومها ، فهرعوا إلى المدينة مستغيثين بالخليفة ، وخف عمر إلى استقبالهم ، وأنزلهم بساحات المدينة ومقابرها وكل فضاء بها ، وعين طائفة من خيار المسلمين لتسجيل أسماء القادمين ، وتعيين أماكن إقامتهم والإشراف على توصيل الأطعمة إليهم.

ثم كتب إلى ولاة الأمصـــار ينبئهم بهذه المحنة ، ويطلب إليهم أن يمدوه بأقصى ما يستطيعون جمعه من مواد الطعام : حبوب أو دقيق ، أو سمن أو زيت ، على أن يكون من أخصر طريق وأقرب وقت مستطاع .

وراح عمر يبكى آناء الليل وأطراف النهار ، ويدعو الله أن لا يجعل هلاك أمة محمد على يديه ، ثم صلى صلاة الاستسقاء مع عامة المسلمين بالمدينة ، فاستجاب الله لهم ، وأنزل عليهم الغيث مدراراً عـــدة أيام متتاليات ، حيث شربت الأرض بعد عطش شديد ، وانتعش أهل الحجاز بعد امتحان ثقيل !

الايمان واثره فى المـال

تتميز سيرة عثمان رضى الله عنه بمكرمة كبرى وموقف عظيم ، فأما المكرمة الكبرى فهى سخاؤه بماله فى سبيل الله ، وسنذكر مثلين على ذلك أولهما :

كان رجل يهودى بالمدينة يملك بئراً عذبة الماء تسمى رومة ويغلى ثمن مائها على الصحابة ، فشكوا منه إلى النبى (ص) فقال « من يشترى رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة » .

فأتى عثمان اليهودى يساومه فى شرائها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم ، فجعله للمسلمين واتفق معه على أن تكون البئر يوماً له ويوماً لليهودى ، فكان المسلمون إذا جاء يوم عثمان يستقون ما يكفيهم من الماء يومين ، فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت علىّ ركيتى (أى بئرى) فاشتر النصف الآخر ، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم وأطلقها كلها للمسلمين .

أما المثل الثانى فقد كان عند غزوة تبوك ، وهى المسماة بغزوة العسرة ، وكانت فى السنة التاسعة من الهجرة ، وكان المسلمون فى ضيق شديد وعسرة بالغة ، يريدون أن يجاهدوا فى سبيل الله ، ولكن يحول بينهم وبين رغبتهم قلة ما بأيديهم من الاموال ، وعجزهم عن شراء حمولة السفر من جمل أو فرس .

وقد بادر كبار المسلمين ببذل أموالهم فى سبيل الله ، وكان عثمان من أيسرهم حالا فجهز هذا الجيش بتسعمائة بعير وخمسين فرساً .

أما الموقف العظيم الذى ميزناه آنفاً على غيره فى سيرة عثمان فهو موقفه فى غزوة الحديبية ، وخلاصته أنه لما تحرج الموقف بين النبى (ص) وبين قريش حين أراد الطواف بالبيت ومنعوه ، اتجه رأيه الشريف إلى إرسال أحد وجهاء الصحابة ليشرح لهم وجهة نظره لهم ، ويقنعهم انه إنما يريد الطواف بالبيت ولا يريد حربا أو قتالا ، فعرض الأمر على عمر بن الخطاب ، فذكر أن ليس له من بنى عدى - رهطه بمكة - من يستطيع حمايته ، ذلك إلى أنه مشهور بغلظته على قريش ، ثم أشار بانتداب عثمان بن عفان لهذه المهمة فقبل الرسول الكريم مشورته ، ورشح عثمان لها فقبلها من غير تردد .

ثم أشيع بعد ذهاب عثمان إلى قريش أنهم قتلوه ، فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيعة الرضوان ، وكان شعارها الفتح أو الشهادة ، وهى البيعة التى يقول الله عز وجل فى شأنها :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً)

وبايع النبى صلى الله عليه وسلم عن عثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى ، وقال « اللهم إن هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك »

ونتيجة هذه الواقعة معروفة ، فقد ظهر أن عثمان حى يرزق وتراجعت قريش وعقدت معاهدة الحديبية .

امتحان

بعث عمر بن الخطاب بأربعمائة دينار إلى أبى عبيدة بن الجراح مع غلام له وقال : تلكأ قليلا فى البيت حتى تنظر ما يصنع بها .

وذهب الغلام بالدنانير إلى أبى عبيدة وقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذه ! فقال أبو عبيدة : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية ، اذهبى بهذه الدنانير السبعة إلى

إلى فلان وبهذه الخمسة الى فلان حتى أنفذها كلها الى ذوى الحاجة من المسلمين .

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره بما حدث ، فأعطاه أربعمائة دينار أخرى وقال له : اذهب بهذه الى معاذ بن جبل ، فقال معاذ : وصله الله . يا جارية ، اذهبي الى بيت فلان بكذا ، ولبيت فلان بكذا ، ومضى يعدد البيوت ويعين مقادير ما يرسل الى كل منها ، فأطلت امرأته عليه وقالت :

ونحن والله مساكين فاعطنا .

وكان قد بقى ديناران من الأربعمائة فأعطاهما لها .

رجع الغلام الى عمر فأخبره بما رأى وسمع ، فسر بذلك وقال : انهم إخوة بعضهم من بعض .

(الايمان والتضحية بالروح)

لما أعيت قريشا الحيل فى محاربة الدعوة الاسلامية وعلموا بتحالفه مع الأنصار أدركوا مبلغ ما هم معرضون له من الخطر ، إذ كانوا على علم ببراعة الأوس والخزرج فى القتال وعراقتهم فى ممارسة الحروب ، فاجتمعوا بدار الندوة وقرروا أن لامخرج لهم من هذا المأزق الا بقتل محمد بن عبد الله ، ولكى يُعجزوا بنى هاشم عن المطالبة بدمه اتفقوا على أن ينتخب كل بطن من بطونهم فتى شديد البأس ، على أن يتولى هؤلاء الفتيان جميعا قتله حتى يتوزع دمه على قريش كلها ، ويجد بنو هاشم أن لا قبل لهم بحرب أهل مكة جميعا .

وفى الليلة التى عينت لتنفيذ هذه المؤامرة ، انتهى أمرها الى النبى ﷺ فأخبر علياً بها ، وطلب اليه أن يرتدى لباسه وينام فى فراشه ليوهم المتآمرين أنه — أى النبى الكريم — فى داره وفى فراشه كعادته ، ثم انصرف مهاجراً من مكة الى المدينة ومعه أبو بكر الصديق على ما هو معروف .

وقد قبل على هذه المهمة الفدائية بنفس مطمئنة ، وجنان ثبت ، وكان يحس فى ذلك الوقت أنه أسعد الناس طراً بأن يقدم نفسه فداء لنبيه وحبيبه العظيم .

وظل المتآمرون بين آونة وأخرى يتطلعون من خلل الباب فيرون علياً نائما وهم يحسبونه محمداً ، فيطمئنون الى موقفهم ، وكانوا قد رأوا من الحكمة أن يؤجلوا

فعلتهم الى الهزيع الأخير من الليل ، وبينما هم على هذه الحال من التربص والانتظار إذا بأحد الناس يفاجئهم بأن محمداً قد بارح داره وهم غافلون .

واقتحم المتآمرون الدار وهجموا على الفراش ، فإذا بهم يجدون فيه على بن أبى طالب لا محمد بن عبد الله فيسقط فى أيديهم ، ويمنون بأشنع خيبة لاقوها فى حياتهم ، ولا يجدون منفذاً لتصريف غيظهم غير أن يشتموا عليا ويضربوه ، ويحبسوه ساعات ثم يطلقوه .

﴿ الايمان والفهم الدقيق ﴾

قال رجل من قريش لعمر بن الخطاب : ألا تتزوج أم كلثوم بنت أبى بكر فتحفظه بعد وفاته وتخلفه فى أهله ؟ فقال عمر: بلى انى لأحب ذلك ، فاذهب الى عائشة فاذكر لها ذلك وعد الىّ بجوابها ، ومضى الرسول الى عائشة فأخبرها بما قال عمر فأجابته الى ما طلب وقالت حبا وكرامة .

ودخل عليها عقب ذلك المغيرة بن شعبة فرآها مهمومة ، فقال لها : مالك يا أم المؤمنين ؟ فأخبرته برسالة عمر وقالت : ان هذه جارية حديثة السن وأردت لها ألين عيشا من عمر .

فقال المغيرة : علىّ أن أكفيك ، وخرج من عندها فدخل على عمر فقال : بالرفاء والبنين ، فقد بلغنى ما أتيته من صلة أبى بكر فى أهله وخطبتك أم كلثوم .

فقال عمر : قد كان ذاك .

فقال المغيرة : انك يا أمير المؤمنين رجل شديد الخلق على أهلك ، وهذه صبية حديثة السن فلا تزال تنكر عليها الشىء فتضربها فتصبح فيحمك ذلك وتتألم له عائشة ويذكرون أبا بكر فيبكون عليه فتجدد لهم المصيبة مع قرب عهدها فى كل يوم .

فقال عمر : متى كنت عند عائشة واصدقنى ؟

فقال : كنت عندها آنفا .

فقال عمر : أشهد أنهم كرهونى ، فتضمنت لهم أن تصرفنى عما طلبت ، وقد أعفيتهم .

الايمان والكياسة

ولى عمر المغيرة على البحرين ، وكان بها كثير من الأعاجم على دينهم فكرهوه وأعملوا الحيلة فى عزله ، فشكوه إلى عمر فعزله ، ولكنهم خافوا أن يعيده إليهم بعد أن يقف على بطلان شكواهم منه ، فجمعوا من بينهم مائة ألف درهم وأحضرها دهقانهم[1] إلى عمر ، فقال ما هذه ؟ قال هذه أموال اختانها المغيرة فأودعها عندى .

فدعا عمر المغيرة فسأله عن جلية الأمر فقال : كذب الدهقان ، إنما كانت مائتى ألف ، فقال عمر : وما حملك على ذلك ؟ قال كثرة العيال .

فسُقِط فى يد الدهقان ، وراح يحلف بأغلظ الأيمان أن المغيرة لم يودع عنده قليلا ولا كثيراً .

فقال عمر للمغيرة : ما حملك على هذا ؟ قال

إنه افترى علىّ فأردت أن أخزيه .

الايمان واثره فى مواقف الجد

كان لسعد بن معاذ موقف ليس كمثله فى نصرة الاسلام ، وليس من المبالغة فى فى شىء القول بأنه لولا موقف سعد هذا لما كان أحد يعلم إلا الله ماذا سيكون مصير الدعوة الاسلامية ، ومتى تظفر بالفرصة التى تهيء لها الفوز والانتشار إذا فاتتها هذه الفرصة السانحة .

وقد عنينا — بما ذكرنا — موقفه يوم بدر حين خرج النبى ﷺ بأصحابه ليلاحق تجارة قريش ، وتوقع أن تكون هناك حرب بينه وبينها ، وقد علم أنها خرجت لتدافع عن تجارتها ، لقد كانت كثرة أصحابه الذين خرجوا معه من الأنصار ، ولم يكن العهد الذى قطعه الأنصار على أنفسهم من مناصرة الرسول يلزمهم أن يحاربوا معه خارج المدينة ، فأراد أن يطمئنَّ إلى موقفهم ، فشرح الأمر لأصحابه جميعا ، وكيف أن احتمال الحرب أصبح قريبا ، ثم قال « أشيروا علىَّ أيها الناس »

---

(١) الدهقان : بضم الدال أو كسرها مع سكون الهاء لقب رياسة عند الأعاجم

فوقف بعض المهاجرين وقال خيراً ، فأعاد النبي ﷺ ما قال ، وفطن سعد بن معاذ إلى قصده ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله .

فقال : نعم .

فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وقد سر النبي ﷺ بمقالة سعد وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين[1] ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

ولما تواقف الفريقان وأزف القتال جاء سعد بن معاذ إلى النبي (ص) وهو يتوسط صفوف المسلمين وقال :

يا رسول الله ، ألا نبنى لك عرشاً تكون فيه ، ونعد لك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ، يا نبي الله ما نحن أشد لك حباً منهم ، ولا أطوع لك رغبة منهم فى الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ، ويناصحونك ويجاهدون معك .

فقال عليه الصلاة والسلام « أو يقضى الله خيراً من ذلك » أى النصر ، ومع ذلك أقيم العريش على أنه تدبير من تدابير الوقاية السليمة ، وكان على تل مرتفع يشرف على المعركة ، ووقف على بابه سعد بن معاذ وجماعة من صفوة المهاجرين والأنصار لحراسة الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) أى النصر أو الاستيلاء على تجارة قريش .

الايمان وقاطع الطريق

كان أبو ذر الغفارى فى الجاهلية قاطع طريق وأحد الذين يسعون فى الأرض فساداً . قال خفاف بن إيماء [١] :

كان أبو ذر رجلا يصيب الطريق ، وكان شجاعا ، ينفرد وحده بقطع الطريق ، ويغير على الإبل والقافلة فى عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه كأنه السبع ، ويأخذ ما يريد ، وسمع عن النبى ﷺ فى بدء الدعوة ، وهو يومئذ يدعو مختفياً ، فأقبل يسأل عنه .

وجاء أبو ذر إلى النبى (ص) فى قصة طويلة ذكرتها كتب السيرة ، وطلب أن يعرض عليه الإسلام فأجابه إلى ما طلب ، ثم سأله : من أنت ؟ فقال : جندب من غفار .

قال أبو ذر : فرأيت الدهشة والعجب فى وجهه الكريم ، وكان فيهم - أى فى قومه غفار - من يسرق الحاج ، وكنت رابع الاسلام .

ولما أسلم أبو ذر قال له النبى (ص) : ارجع إلى قومك فأخبرهم واكتم أمرك عن أهل مكة ، فإنى أخشاهم عليك .

فقال : والذى نفسى بيده لأصوتن بها بين ظهرانيهم .

وخرج أبو ذر حتى أتى المسجد الحرام فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فثار القوم إليه وضربوه حتى ألقوه على الأرض فاقد الحراك ، فجاء العباس بن عبد المطلب وانحنى فوقه بظهره ليحميه ، وقال ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ، وأنقذه منهم

ثم عاد أبو ذر من غد إلى مثلها ، فضربوه كما فعلوا بالأمس ، وأنقذه العباس منهم كذلك .

وهكذا ما حل الإيمان الصادق بقلب إلا جعله كتلة من الصراحة جريئا على الباطل ، يستعذب العذاب فى سبيل الله وإن كان وحده

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى الجزء الثانى طبعة معهد المخطوطات العربية ص ٣٨

المؤمن باع نفسه لله

(إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لهمُ الجنّةَ يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ فيَقتُلونَ ويُقتَلونَ وعداً عليهِ حقّاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ، ومَنْ أوفى بعهدِهِ مِنَ اللهِ فاستبشِروا ببيعِكُمُ الذي بايعتُم بهِ، وذلكَ هوَ الفوزُ العظيمُ. التائبونَ العابدونَ الحامدونَ السائحونَ الراكعونَ الساجدونَ الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عنِ المنكرِ والحافظونَ لحدودِ اللهِ، وبشِّرِ المؤمنينَ.

لقد صدق الأمير شكيب أرسلان إذ يقول فى كتابه «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم» إن سبب ذلك هو البخل والجبن، وقد استعاذ رسول الله (ص) بالله منهما: روى مسلم والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم قال «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل» ولن يعود للإسلام مجده، وللمسلمين عزتهم إلا إذا ساروا على ضوء هذه الآية الحكيمة وأمثالها «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

حقاً لن تعود للمسلمين كرامتهم الا اذا هانت عليهم أنفسهم وأموالهم فبذلوها فى سبيل الله (يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا)

أيها المسلمون: لا تظنوا أنه لا سبيل الى اعادة عزتكم. فقد وصلت بعض الأمم الى أحط مما وصلتم اليه، ثم انتبهت من غفلتها فوصلت الى مكانتها، فما عليكم الا كثرة المطالعة فى كتاب الله مع التدبر، وليبدأ كل منا بنفسه ثم يدعو غيره فيثبت

الإيمـان الصحيح فى القلوب ، ويثمر ثمرته الطيبة من الجهاد وحب إعلاء كلمة الله .

اجعلوا للقرآن نصيباً من أوقاتكم التى تنفقونها فى قراءة الجرائد والجلوس على المقاهى ، والذهاب إلى الملاهى ، لقد جربتم ما أنتم عليه طويلا ، فجربوا ذلك قليلا

قارنوا بين إيمان فقراء الصحابة رضى الله عنهم الذين جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استعداده لغزوة تبوك باذلين كل ما يملكون ، وهى أرواحهم ودماؤهم ، طالبين منه صلى الله عليه وسلم أن يمدهم بلوازم الحرب فلا يجد صلى الله عليه وسلم فينصرفون وهم يبكون لعجزهم عن التجهز للقتال فى سبيل الله ، فأنزل الله فى شأنهم (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون)

هـذا هو الإيمـان الصحيح وهذه آثاره : بذلوا أرواحهم فى سبيل الله ففازوا بإحدى الحسنيين فى كلا الحالين ، إن غلبوا فازوا بشرف النصرة ، وعلو الكلمة ، والتمتع بالغنائم ، وان قتلوا فازوا بحياة أعلى من هذه الحياة فى دار الخلود ، يجدون فيها ما ادخره الله لهم من عظيم الأجر والتكريم .

روى الإمام أحمد عن السـدوسى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله (ص) لأبايعه فاشترط على شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة وأن أؤدى الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد فى سبيل الله ، فقلت يا رسول الله أما اثنتان فو الله ما أطيقهما ؛ الجهاد والصدقة ؛ فإنهم زعموا أن من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله ، فأخاف ان حضرت تلك جشعت نفسى وكرهت الموت ــ والصدقة فو الله مالى الا غنيمة وعشر ود ، هن رسـل[1] أهلى وحمولتهم . قال فقبض رسول الله (ص) يده ثم حرك

---

(١) أى ان كل مالى هو قليل من الغنم والابل ، والذود من الابل قيل هو ما بين الثلاث الى العشر ، والرسل أى اللبن ، أى هن ذوات لبن طعام أهلى وحمولتها : يحملون عليها أثقالهم .

يده ثم قال ، فلا جهاد ولا صدقة فلمَ تدخل الجنة إذاً ؟ ، قال قلت أنا أبايعك ، قال فبايعت عليهن كلهن .

ففي هذا الحديث : أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد والصلاة والصام والحج وهذا دليل على كذب كثير من مسلمى اليوم فى دعوام الايمان .

ولقد زاد فى تقهقر المسلمين إمساكهم المال عن البذل فى سبيل الله ؛ فلم يعطفوا على بائس ، ولم يواسوا اليتيم ولم يطعموا المسكين وضنوا عليهم حتى بحقهم من زكاة الزرع والمال ، فكثرت جرائم السرقة والنهب ، والاحتيال والنصب . حتى أصبحنا فى حاجة إلى أن يكون عند كل بيت رجل من « البوليس » حتى تطمئن النفوس .

وقد أراد بعض ذوى الغيرة الدينية . والحمية الإسلامية ، أن يقاوموا هذه الجرائم ببث روح الدين والارشاد بين طبقات الأمة ليعرف الأغنياء واجبهم نحو السائل والمحروم ، ويعلم الفقراء ما فى الصبر من الخير العظيم ، وأسسوا لذلك كثيراً من النواد ، فى مختلف الجهات والبلاد ، وصاروا يعلنون فى الجرائد اليومية والاسبوعية عن مواعيد المحاضرات وأماكنها ، فاعرض عنها الأغنياء إلا قليلا والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولما كان عماد هذا المشروع هو المال كى يتسنى تسديد أجر المسكن والنور والمقاعد وغير ذلك فقد مات كثير من هذه النواد لامساك المسلمين عن امدادها بالاشتراك الشهرى ، وما هو وربك بالكثير المعجز ، فهو خمسة قروش ينفق مثلها يوميا فى الدخان وغيره ، فكيف تقوم لنا قائمة بين الأمم ، وقد نبذنا القانون الالهى الذى حث على الانفاق فى سبيل الله ، ووعد بمضاعفة الأجر عليه .

ومن تدبر قوله تعالى « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . تبين له أن الآية صريحة فى أن من أمسك يده عن البذل فى سبيل الله فقد ألقى بيده إلى التهلكة . وأما من جعل النهى عن الالقاء فى التهلكة حجة للتخلف عن الدفاع فقد غفل .

الإيمان والفهم البصير

وهل هناك أفهام بصيرة وأخرى غير بصيرة؟ نعم وإليك هذا الحادث الواقعي:

دخلت أحد المساجد المنسوبة إلى جمعية إسلامية شرعية بامبابة لأصلي المغرب، وكانت الجماعة قد انصرفت، والمسجد أصبح فارغا أو كاد، فانتحيت ناحية وأقمت الصلاة وأخذت فى قراءة الفاتحة جهراً، وربما كانت القراءة جهرية أكثر من اللازم، وإذا برجل مظهره مظهر رجل سنى فى لبسه وفى شكله، يصيح: ما هذا الصوت يا اللى بتصلى، وطى صوتك.

فقطع علىّ خشوعى فى الصلاة ووطيت صوتى سمعا وطاعة.

ولما انتهيت من الصلاة قلت له: يا سيدى إن رسول الله (ص) رأى رجلا يسرع فى صلاته إسراعا يبطلها، فتركه صلى الله عليه وسلم حتى أتمها ثم قال له: ارجع فصل فإنك لم تصلّ. وهو حديث صحيح مشهور عند العلماء. فكان الأليق بك أن تصبر حتى أصلى ثم تعلمنى مما علمك الله.

فهاج وماج وأتى بكلمات فى غير الموضوع فقلت له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رأوا رجلا يبول فى المسجد فأراد الصحابة أن يمنعوه، فأمرهم (ص) أن يتركوه حتى بال ثم قال له. إن المساجد لا تصلح لشىء من هذا، إنما بنيت لذكر الله وإقامة الصلاة.

فيجب قبل أن نلتزم بهذه المظاهر أن نتعلم فقه السنة النبوية حتى لا نكون سبة فى جبين الاسلام!!!

إن الايمان والتقوى ينيران لصاحبهما طريق الدين والدنيا، فلا يخطو خطوة إلا والتوفيق حليفه، ولا ينطق بكلمة إلا والسداد صاحبه ورفيقه. وهذا تصديق قوله تعالى (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا).

والفرقان هنا هو التمييز بين الحق والباطل، وبين النور والظلام.

القول بالنسخ فى القرآن من كمال الايمان

بداية القصة :

فى أحد أيام الجمع من أيام ربيع الأول سنة ١٣٨٠ حضرت صلاة الجمعة فى دار (أنصار السنة) وكان الخطيب الأستاذ عبد الرحمن الوكيل ، رئيس الجماعة ، وكانت الخطبة فى موضوع النسخ فى القرآن ، وكان التوفيق يجانبه ويخالفه من جهتين : من جهة اختيار الموضوع ، فلم تجر العادة بالكلام فى هذا الموضوع على منابر الجمعة ، ولكن لعل له عذراً ، فقد سبقه سلفه (العظيم) وجعل إحدى خطبه فى مسجد المدارة فى موضوع الطلاق ، وهو اختيار غير كريم .

درج الناس فى القديم والحديث على أن يكون موضوع خطبة الجمعة عظة تؤثر فى القلوب ، وتذكر بأيام الله ، وتغسل الصدور مما علق بها طوال الأسبوع ، ولم يعهدوا مثل مباحث النسخ والطلاق إلا فى الكلمات التى تقال بعد الصلاة .

هذه واحدة - والجهة الثانية التى خالفه فيها التوفيق هى إعلان رأيه وما يذهب إليه من إنكار النسخ فى القرآن مطلقاً ، وتكلف تأويل الآيات الناطقة بالنسخ ، وقد عهدنا فيه الطلاقة والفصاحة والوعى وقوة الحجة إذا تكلم فى سفاهات الصوفية وسخافات الحلولية ، أما فى هذا الموضوع فكان ظاهر التلكؤ والاحتباس ، وكان كأنه يصعد إلى مرتقى صعب وعر .

ولم يكتف بإعلان رأيه حتى أخذ يجلب بخيله ورجله فى تسفيه المخالفين له ، فى غير إنصاف ولا عدل ، ولما ذكره أحد المصلين ببعض الأحاديث الصحيحة التى ترد عليه ، طعن فى الحديث ورده ، مع أنه صحيح غير مردود .

وهنا مر بباله ما رواه البخارى فى صحيحه مما يؤيد النسخ فهاجمه هجوماً عنيفاً ، وقال إن المحققين من علماء الحديث ذكروا أن فى البخارى نحو عشرة أحاديث غير صحيحة .

وكنت أحب للأستاذ أن يحذف هذا من خطبته لأمرين : أحدهما أن هذه

الأحاديث التى أشار إليها قد تصدى لها دكاترة الحديث وبينوا صحتها ، وذكروا لها طرقا وأسانيد أخرى ، ودافعوا عن البخارى دفاعا مجيداً .

والأمر الثانى أن هذه الأحاديث التى أشار إليها ليس فيها شيء من أحاديث النسخ فى القرآن ، وهذا يقطع بصحة أحاديث النسخ عند المخالف والموافق .

وبعد الصلاة تقابلت مع بعض إخوانى القدامى بالجماعة ممن أعلم أن لهم صلة بالحديث النبوى ، كما أعلم أن عندهم الشجاعة الأدبية التى يستطيعون معها أن يعلنوا رأيهم ، وإن خالف رأى الأستاذ الرئيس .

تقابلت معهم وسألتهم : هل أعجبكم ما قيل فى خطبة الجمعة ؟ قالوا لا . قلت : والعمل ؟ قالوا إن الموقف يحتاج إلى شيء من الحكمة والتريث ، حتى يفيد العلاج . قلت لهم : لا يخفى عليكم أن سكوتنا على سلفه (العظيم) أدى به إلى أن صار طاغية : يقول ما يقول من الآراء الفجة ولا يقبل فيها مناقشه ، ويفعل ما يفعل ولا معقب عليه ، حتى كره كثير من الجماعة أن يحملوا معه وزر تصرفاته فانصرفوا عن المسجد ، وأصبح من الواضح البين أن المسجد لا يمتلىء يوم الجمعة ، بعد أن كان يضيق بأهله فتمتد الصفوف فى خارجه حتى يتعذر المرور على الناس .

• • •

ونحن هنا سنناقش الموضوع فى أدب ، حتى يعلم من لا يعلم أن رأى الأستاذ الرئيس فى إنكار النسخ لا يعبر إلا عن نفسه ، وأن رأى الجماعة ورأى أئمتها غير رأيه ، وأكبر ظنى أن الأستاذ الرئيس سيتسع صدره لهذه المناقشة ولا يصفعنى كما صفعنى سلفه (العظيم) .

سنة سيئة

لقد ظهر فى النصف الأول من القرن الرابع عشر عالم أزهرى كبير العقل ، عالى الهمة ، ولكنه كان قليل الصلة بعلم الحديث ، رأى ما عليه أهل الأزهر من الجمود والتأخر ، فحاربهم وحاربوه ، وكان له بعض المريدين الذين لم يحضروا عليه ولم يستمعوا له ؛ ولكنهم سمعوا به وقرأوا له ، وأخذوا يخرجون على الأمة بآراء

وأقوال مغشوشة ينسبونها إلى هذا الرجل وإلى غيره من السابقين ممن يدعون لهم الاجتهاد .

هذا الرجل هو الأستاذ محمد عبده .

وهذا المريد هو الدكتور صدقى .

ومن هذه الأقوال القول بعدم النسخ فى القرآن .

ومن هنا بدأ ظهور هذه الفرية فى العصر الحديث .

ومن هنا جرى الاستاذ رئيس الجماعة وراء هذا السراب دون ترو ولا تحقيق

ونعتقد أن الدكتور صدقى لم يكن له من الدراية والعلم ما يؤهله للخوض فى مثل هذه الأبحاث ، ولم يكن عنده من الورع مايجعل رأيه فوق مستوى الشبهات ، ولكنه سن لمن بعده الجرأة وعدم التحرى للحقائق الثابتة ، بل والتزوير والتدليس أحياناً ، وعزو أقوال إلى ثقات لم تصدر عنهم كما سنبينه .

مجلة المنار

ظهرت هذه المجلة بظهور الأستاذ محمد عبده ، وكانت مجلة دسمة لايهضم مواضيعها إلا كبار العلماء والمفكرين ، وقليل ما هم ، وحاربها علماء الأزهر تبعاً لمحاربتهم للأستاذ محمد عبده ، فقد كانت تنشر آراءه وأفكاره وتدافع عنها .

ومن هنا قل توزيعها ، وعجزت عن أن تجمع نفقاتها ، فأخذ صاحبها يعمل على رواجها ، ففتح فيها باباً للمناظرات ، كما بدأ نشر مقالات للدكتور صدقى طبيب سجن طره ، وكلها أو أكثرها فيه انحراف عما ثبت فى السنة الصحيحة ، وظهرت فيها هذه النغمة المرذولة :الاسلام هو القرآن وحده..ثم

أحاديث الآحاد لا يعمل بها ، الرسول ليس له معجزات غير القرآن إلخ .

وكانت حجة صاحب المنار فى نشر هذه المباحث : حرية النشر ، حرية الرأى .

وقد انتقد عليه بعض القراء نشر هذه المباحث وسكوته عليها ، فاعتذر بعذر (لا نصفه أدباً مع مقامه) كما فى ص ٩٢٠ من المجلد الثامن من المنار .

اضبط ...

قال الدكتور صدقى ما نصه :

« ذهب جمهور المسلمين إلى أن القرآن قد وقع فيه نسخ كثير ، واستدلوا على ذلك بأحاديث آحادية وببعض آيات وردت فيه ، وتغالوا فى المسألة حتى أنهم جعلوا جزءاً عظيما من القرآن منسوخا ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل زادوا الطين بلة بأن ادعوا نسخ بعضه بالسنة ، حتى جرأوا الخصوم على الطعن فى الكتاب العزيز ولكن قيّض الله لهم فى كل زمن مَن رد عليهم فى أكثر هذه الدعاوى أو فى جميعها من علماء الإسلام المحققين ، فقد ظهر من بينهم من أفهمهم معنى أكثر هذه الآيات وأبان لهم أن لا ناسخ ولا منسوخ فيها بالدليل الذى لا يقبل الرد ، مثل الإمام الشوكانى وغيره »

وختم هذا المراء بقوله « ومن أراد أن يحاججنى فى ذلك فعليه بالقرآن وحده » ص ٧٧٥ مجلد ٨ منار .

هذا نص كلام الدكتور صدقى ، وهو لا يزيد على بضعة أسطر من صفحات المنار ، ولكنه يحمل فى كلماته عدة مغالطات كان لها أسوأ الأثر فيما بعد :

(١) زعم أنه قد ظهر فى المسلمين (فى كل زمن) من أنكر النسخ فى القرآن ، ولم يذكر أسماءهم ، والصحيح أن علماء كل عصر كانوا يقولون بالنسخ كما سيأتى :

(٢) عجز عن ذكر كل أو بعض المنكرين للنسخ إلا الشوكانى ، وقد افترى عليه فى ذلك ، وسننقل لك نص كلام الشوكانى من تفسيره ، فتعلم أنه يقول بالنسخ مع جمهور المسلمين .

(٣) ختم الدكتور كلمته بأسوأ ما يختم به رجل كلامه ، فهو يدعو من ينكر عليه رأيه إلى الاحتجاج بالقرآن وحده ... أما السنة ولو صحت فلا يقيم لها وزنا .

﴿ كلام الشوكانى ﴾

قال الشوكانى ج ١ ص ١٠٧ (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)

النسخ فى كلام العرب على وجهين (الوجه الثانى) الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ، وهذا الوجه الثانى ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة : أحدهما إبطال الشىء وزواله وإقامة آخر مقامه ، ومنه : نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله (ما ننسخ من آية)

وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفاً وخلفاً ، ولم يخالف فى ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه ولا يؤبه لقوله .

وقد اشتهر عن اليهود أقماهم الله إنكاره ، وهم محجوجون بما فى التوراة .

ومعنى (نأت بخير منها أو مثلها) نأت بما هو أنفع للناس منها فى العاجل والآجل أو فى أحدهما ، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة .

ومرجع ذلك إلى إعمال النظر فى المنسوخ والناسخ ، فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم فى العاجل ، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع لها فى الآجل ، وقد يستويان فتحصل المماثلة .

وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) يفيد أن النسخ من مقدوراته وأن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية . اه

هذا كلام الشوكانى وهو صريح فى القول بالنسخ ، بل أشار الى أن إنكار النسخ من عمل اليهود .

ونكتفى بهذا فى بيان زيف كلام الدكتور .

أما رئيس الجماعة فنضم له إلى ما سبق — كلام الحافظ ابن كثير وهو من أنداد ابن القيم وتلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية .

قال ابن كثير صـ ٢٧٥ ج ١ طبعة المنار :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) أى فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (نأت بخير منها) يقول خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم . وقال أبو العالية « ما ننسخ من آية » فلا نعمل بها .

وقال قتادة (نأت بخير منها أو مثلها) يقول : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهى .

وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشق من يشاء ، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء ، وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه سبحانه وتعالى .

فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا .

وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله فى دعوى استحالة النسخ ، إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً ، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراءاً وإفكا .

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله :

فتاويل الآية : ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى ، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذ أشاء .

ثم قال : وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة

(قلت ـ أى ابن كثير) الذى يحمل اليهود على البحث فى مسئلة النسخ إنما هو الكفر والعناد ، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد ، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة

وشرائعه الماضية — إلى أن قال ما نصه : « والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وكلهم قال بوقوعه . وقال أبو مسلم الأصبهانى المفسر : لم يقع شىء من ذلك فى القرآن ، وقوله ضعيف مردود مرذول ، وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول ، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول ، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس ، لم يجب بشىء .. الخ الخ

هذا كله كلام الحافظ ابن كثير ، وهو قد نقل كلام إمام المفسرين ابن جرير ، وهو صريح فى وقوع النسخ .

كلام القرطبى

والقرطبى — ومقامه بين المفسرين كبير — تكلم على آية (ما ننسخ) فى ٨ صفحات كبار (٦١ - ٦٨ ج ٢) بما يتفق تماما مع ما نقلناه سابقا ، ولا حاجة بنا إلى نقله كله ، حيث يطول بنا الحديث ، ولكننا نكتفى منه بما نصه :

(الرابعة) أنكرت طوائف من المنتمين للاســـلام المتأخرين جوازه ؛ وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه فى الشريعةاه . وقد صرح الحازمى المتوفى سنة ٥٨٤ هـ فى مقدمة كتابه « الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار » بوقوع النسخ فى القرآن كما صرح بذلك الإمام الشافعى ، ولم يعارض إلا فى نسخ القرآن بالحديث ، وكذلك ابن القيم .

فإن كان الأمر أمر نصوص فقد أشبعوا أبحاثهم بالنصوص ، وإن كان الأمر أمر فهم وإدراك فلا شك أن هؤلاء الأئمة أصح فهما وأقوى إدراكا من سواهم .

* * *

وليس فى وسعى أن أقتنى جميع كتب التفسير حتى أنقل منها اتفاقهم على هذا الأصل وهو وقوع النسخ فى القرآن ، فأكتفى بما نقلت عن هؤلاء الأئمة ، وأنتقل إلى الكلام على الآيات التى تعرض لها رئيس الجماعة بالتأويل الذى أخرجها عن ظاهرها .

﴿ التأويل حرام على غيرنا وحلال لنا ﴾

تعلمت من شيخى (بحق) العلامة ابن القيم أن الكلمة قد يكون لها فى لغة العرب عدة معان ، ولكن إذا جاءت هذه الكلمة فى سياق ما فلا بد أن يكون معها ما يعين المراد منها ويحدده ، فلا يكون القارىء فى أمر مريج ، خصوصا إذا كانت هذه الكلمة ضمن آية من القرآن فلا بد من وجود المبيّن ، لأن القرآن جاء للهداية لا للاضلال .

فمثلا كلمة « يد » تطلق فى لغة العرب على النعمة وعلى الجارحة للمخلوق ، تقول لفلان عندى يد أى له عندى معروفا ونعمة . فإذا جاءت كلمة « يد » فى سياق ما فلا بد أن يكون معها ما يبين المراد منها ، فإذا وضعت لها المعنى الثانى فى هذا السياق فقد أفسدت وأخطأت ، إذ لا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما ، فى تركيب ما ، صلاحيته له فى كل تركيب .

ولندخل فى الموضوع :

استغل الأستاذ رئيس الجماعة سعة اللغة فرأى أن كلمة (آية) تطلق على الآية القرآنية ، وعلى الآية الكونية ، فراح يؤول جميع الآيات التى تنادى بالنسخ بأنها الآيات الكونية (المعجزات) وبأنها طبعا تتغير وتتبدل تبعا لعصر أصحابها ، أما أن آية قرآنية تغير حكم آية أخرى فلا .

ونحن نريد أن نكون من المنصفين ، ونذكر سياق الآيات القرآنية التى تقول بالنسخ فيظهر الحق جليا دون إرهاق .

١ - قال تعالى فى سورة البقرة (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية) الخ .

٢ - وقال تعالى فى سورة النحل (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . . وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون)

سياق هذه الآيات صريح فى نسخ القرآن بالقرآن ، فضلا عن أنه قد جاء فيهما كلمة (ينزل) وهذه لفظة تحدد معنى التبديل والنسخ فى الآيتين بأنه التخيير ، وبأن لفظة الآية فيهما يراد بها آية قرآنية إذ لا يعهد فى أسلوب القرآن أن يستعمل لفظة (ينزل) فى الآيات الكونية ، وإليك الدليل ، قال تعالى :

١ — ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق (البقرة)

٢ — نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه (آل عمران)

٣ — آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله (النساء)

٤ — وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها .

٥ — إن وليى الله الذى نزل الكتاب (الأعراف)

٦ — تبارك الذى نزل الفرقان على عبده (الفرقان)

﴿ آيات منسوخة عند جمهور العلماء ﴾

١ — (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) الخ .

قال ابن كثير (ج ١ ص ٥٨٦ طبعة المنار)

قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها وهى قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا)

قال البخارى : حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع عن حبيب عن ابن أبى مليكه . قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال يا ابن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه .

قال ابن كثير بعد ذكر هذه الرواية :

ومعنى هذا الاشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان : إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر ، فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التى نسختها

يوم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها .

(أقول) ومحل الشاهد لنا أن هؤلاء الصحابة كانوا يقولون بوقوع النسخ فى القرآن

٢ — (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله)

قال الحافظ ابن كثير (ج ٤ ص ٩٢ طبعة المنار) :

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) كل واحد بعشرة ، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة .

ثم قال : وقال محمد بن إسحاق : حدثنى ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال (الآن خفف الله عنكم)

خاتمة البحث

نكتفى بهذه الأمثلة على وقوع النسخ فى القرآن ، وليس من همنا استقصاء عدد الآيات الناسخة حيث أن هذا ليس موضوع الكتاب .

وقد شنع الأستاذ رئيس الجماعة على القائلين بالنسخ بما وقع بينهم من خلاف ، حيث أن البعض حدد الآيات المنسوخة بعدد معين ، وحددها آخرون بعدد آخر ، ونحن يسرنا أن يسلم معنا الأستاذ بوقوع النسخ ، ثم يجتهد فى هذه الآيات ، فما أداه اجتهاده إليه قرره ، فما على المحسنين من سبيل .

عود على بدء :

أثر الايمان فى نفوس الصحابة

روى مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال : كنت أسق أبا عبيدة بن الجراح وأبا طلحة الانصارى وأبىّ بن كعب شرابا من فضيخ (نوع من الخمر) فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، فقال أبو طلحة : قم يا أنس إلى هذه الجرار (أوانى الخمر) فاكسرها ، فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى كسرتها .

وأحب للقارىء أن يتأمل هذا الحديث من جهتين (الأولى) أن هؤلاء الصحابة كانوا يشربون الخمر — قبل تحريمها طبعا — والخمر من المكيفات التى يصعب على متعاطيها تركها ، ولكن هؤلاء الكرام لم يلبثوا حين جاءهم خبر التحريم أن تركوها وكسروا آنيتها ، وما ذلك إلا من أثر الايمان فى نفوسهم .

(الجهة الثانية) أن الذى جاءهم وأخبرهم بنزول تحريم الخمر وفعلوا بمقتضى خبره هو رجل واحد ، وهذا دليل مفحم لمن فى قلبه عرج ، وفى صدره حرج ، من أخبار الآحاد ، وقولهم إنها لا تفيد العلم .

قال ابن القيم : ووجه الاستدلال أن أبا طلحة أقدم على قبول خبر التحريم حيث ثبت به التحريم لما كان حلالا ، وهو يمكنه أن يسمع من رسول الله ﷺ شفاها . وأكد ذلك القبول بإتلاف الإناء وما فيه ، وهو مال ، وما كان ليقدم على إتلاف المال بخبر من لا يفيده خبره العلم عن رسول الله ، ورسول الله إلى جنبه ، فقام خبر ذلك الآتى عنده وعند من معه مقام السماع من رسول الله ﷺ بحيث لم يشكوا ولم يرتابوا فى صدقه ، والمتكلفون يزعمون أن مثل ذلك الخبر لا يفيد العلم لا بقرينة ولا بغير قرينة .. اه

وقد نشرت مطبعة الإمام قريبا كتاب قيم فى الذب عن حديث رسول الله (ص) وهو بأقلام بعض جهابذة السنة فى هذا العصر سميناه (دفاع عن الحديث النبوى وتفنيد شبهات خصومه) وهو ردود قوية على كتاب ظهر قريبا ينكر حجية الحديث ويسمى أكثره آحادى .

حظ المرأة من هذا الكتاب :

الايمان وآثاره

عند زوجة عمر بن عبد العزيز

لا يفوتنا أن نحلى هذا القسم من كتابنا ببعض آثار الايمان عند بعض النساء ، فإن الايمان كما عمر قلوب الرجال ، كذلك سكن فى قلوب النساء .

وليس معنى افتتاح هذا القسم بنبذة عن زوجة عمر بن عبد العزيز أننا نسينا عمر نفسه ، وإنما تركناه لأنه أكبر من هذه الصفحات ، ولأننا نشرنا سيرته بالتفصيل قريبا للإمام ابن الجوزى .

وهذه النبذة عن زوجة عمر كتبها الأستاذ محب الدين الخطيب فى مقدمة كتاب (آداب الزفاف فى السنة المطهرة) قال :

إن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان كان لأبيها — يوم تزوجت — السلطان الأعظم على الشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والسند وقفقاسيا والقريم وما وراء النهر إلى بخارا وجنوة شرقا ، وعلى مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وإسبانيا غرباً . ولم تكن فاطمة هذه بنت الخليفة الأعظم وحسب بل كانت كذلك أخت أربعة من فحول خلفاء الاسلام ، وهم الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وكانت فيما بين ذلك زوجة أعظم خليفة عرفه الاسلام بعد خلفاء الصدر الأول وهو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .

وهذه السيدة التى كانت بنت خليفة ، وزوجة خليفة ، وأخت أربعة من الخلفاء ، خرجت من بيت أبيها إلى بيت زوجها يوم زفت إليه وهى مثقلة بأثمن ما تملكه امرأة على وجه الأرض من الحلى والمجوهرات ، ويقال إن من هذه الحلى قرطى مارية اللذين اشتهرا فى التاريخ ، وتغنى بهما الشعراء ، وكانا وحدهما يساويان كنزاً .

ومن فضول القول أن أشير إلى أن عروس عمر بن عبد العزيز كانت فى بيت

أبيها تعيش فى نعمة لا تعلو عليها عيشة امرأة أخرى فى الدنيا لذلك العهد ، ولو أنها استمرت فى بيت زوجها تعيش كما كانت تعيش قبل ذلك لتملأ كرشها فى كل يوم وفى كل ساعة بأدسم المأكولات وأندرها وأغلاها ، وتنعم نفسها بكل أنواع النعيم الذى عرفه البشر ، لاستطاعت ذلك ، إلا انى لا أذيع مجهولا من الناس إن قلت : إن عيشة البذخ والترف قد تضرها فى صحتها من حيث يتمتع بالعافية المعتدلون ، وقد تكسبها هذه العيشة الحقد والحسد والكراهية من أهل الفاقة والمعدمين ، زد على ذلك أن العيشة مهما اختلفت ألوانها تكون مع الاعتياد مألوفة ومملولة ، والذين بلغوا من النعيم أقصاه يصطدمون بالفاقة عندما تطلب أنفسهم ما وراء ذلك فلا يجدونه ، بينما المعتدلون يعلمون أن فى متناول أيديهم وراء الذى هم فيه ، وأنهم يجدونه متى شاءوا ، غير أنهم اختاروا التحرر منه ومن سائر الكماليات ليكونوا أرفع منها ، وليكونوا غير مستعبدين لشهواتها .

ولذلك اختار الخليفة الأعظم عمر بن عبد العزيز — فى الوقت الذى كان فيه أعظم ملوك الأرض — أن تكون نفقة بيته بضعة دراهم فى اليوم ، ورضيت بذلك زوجة الخليفة التى كانت بنت خليفة وأخت أربعة من الخلفاء ، فكانت مغتبطة بذلك لأنها تذوقت لذة القناعة ، وتمتعت بحلاوة الاعتدال ، فصارت هذه اللذة وهذه الحلاوة أطيب لها وأرضى لنفسها من كل ما كانت تعرفه قبل ذلك من صنوف البذخ وألوان الترف .

بل اقترح عليها زوجها أن ترتفع عن عقلية الطفولة فتخرج عن هذه الألاعيب والسفاسف التى كانت تبهرج بها أذنيها وعنقها وشعرها ومعصميها مما لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولو بيع لأشبع ثمنه بطون شعب برجاله ونسائه وأطفاله ، فاستجابت له واستراحت من أثقال الحلى والمجوهرات واللآلىء والدرر التى حملتها معها من بيت أبيها ، فبعثت بذلك كله إلى بيت مال المسلمين .

وتوفى عقب ذلك أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولم يخلف لزوجته وأولاده شيئا ، فجاءها أمين بيت المال وقال لها : إن مجوهراتك يا سيدتى لا تزال كما هى ، وإنى اعتبرتها أمانة لك ، وحفظتها لهذا اليوم ، وقد جئت أستأذنك فى إحضارها ،

فأجابته بأنها وهبتها لبيت مال المسلمين طاعة لأمير المؤمنين ، ثم قالت : « وما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً » . وأبت أن تسترد من مالها الحلال الموروث ما يساوى الملايين الكثيرة ، فى الوقت الذى كانت محتاجة فيه إلى دريهمات ، وبذلك كتب الله لها الخلود . وها نحن نتحدث عن شرف معدنها ورفيع منزلتها بعد عصور وعصور ، رحمها الله وأعلى مقامها فى جنات النعيم .

الخنساء

وهذه سيدة أخرى (الخنساء) رضى الله عنها تدفع بنيها الأربعة إلى القتال فى سبيل الله ، وترغبهم فيه بعبارات تشجع الجبان ، بل تحرك الجماد ، فقد روى ابن عبد البر عن الزبير بن بكار أنها شهدت حرب القادسية ومعها أربعة بنين لها ، فقالت لهم من أول الليل : يا بنىّ إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد ، كما إنكم بنو امرأة واحدة ، ماخنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ؛ وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) فإذا أصبحتم إن شاء الله سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها ، وجللت ناراً على أرواقها ، فيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة

فلما كان القتال فى الغد كان يهجم كل واحد منهم ويقول شعراً يذكر فيه وصية العجوز ويقاتل حتى يقتل .

فلما بلغها خبر قتلهم كلهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

اسماء بنت أبي بكر

هى أسماء بنت أبى بكر ، والدها أبو بكر ، أول من دخل فى الاسلام ، ودافع عن الرسول ، وصاحبه فى الهجرة ، وصلى بالناس فى مرضه الأخير ، وتولى الخلافة بعد وفاته .

أخت أم المؤمنين عائشة لأبيها ، وشقيقة الصحابى عبد الله بن أبى بكر ، وزوج الزبير بن العوام ، وأم الخليفة الشهيد عبد الله بن الزبير .

أسلمت مع أختها عائشة ، وهما يومئذ صغيرتان ، بعد أن أسلم قبلهما ثمانية عشر من العرب ، وتعد أسماء بذلك من السابقين فى الاسلام .

شبت قوية الايمان متمسكة بدينها ، متبعة تعاليمه بعيدة عما يغضب الله ورسوله ، يشهد بذلك ما روى من أن أمها جاءت إليها بهدية — وكانت لا تزال على دين قريش ، ولم تؤمن بمحمد — فردتها . ولما ألحت عليها ذهبت أسماء إلى النبى عليه السلام وأخبرته قائلة :

« يا رسول الله إن أمى قدمت إلىّ وهى راغبة ، أفأصلها ؟ فنزل قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)

فقال لها الرسول « نعم . صلى أمك »

. . .

تزوجت الزبير بن العوام ، وتحملت معه شظف العيش ، ثم تركها وهاجر إلى الحبشة حينما زاد اضطهاد المشركين لمحمد وأصحابه بمكة ، ولكنه ما لبث أن عاد إليها ليستعدا للذهاب إلى المدينة . وهناك أقاما بيثرب . وكان الزبير معدما ، ما له شىء غير جمله الذى يستقى عليه ، وغير فرسه . فكانت بنت الصديق تقوم بعلف فرسه ، فإذا فرغت خرجت تملأ الماء ، ثم تعود لتصلح من أمرها . وكانت لا تحسن العجن فتستعين بجاراتها من الأنصار ، فإذا انتهت من عمل البيت انطلقت إلى أرض

الزبير التى أقطعها إياه رسول الله - وهى على ثلثى فرسخ من الدار - لتعمل بها ، حتى إذا غابت الشمس عادت إلى دارها ، لتحتضن ابنها عبد الله .

روى أنها حملت النوى من أرض زوجها يوما وانطلقت إلى الدار ، وفى الطريق قابلت رسول الله ومعه نفر من الأنصار ، ورأى النبى حملها فهم أن يحملها على راحلته خلفه ، فهتف : أسماء ، ثم قال لبعيره : اخ .. اخ .. ، لينيخ بعيره .

ولكن أسماء لم تتقدم ، فلقد تذكرت شدة غيرة الزبير ، فعرف رسول الله أنها استحيت أن تسير مع الرجال .

• • •

اشتركت مع المسلمين فى الجهاد ، وذهبت لتغزو مع الرجال ، وشهدت اليرموك فلقد تجهزت للخروج مع زوجها الزبير ، ووقفت مع النساء وبيدها سيف مشهور تنفذ أمر القائد خالد بن الوليد الذى أمر النساء بأن يقتلن كل مسلم يولى من المعركة فلما نشب القتال ، والتحم الناس ، وتطاردت الفرسان ، واستمرت رحى الحرب دائرة ، وأخذ النساء يضربن من انهزم من المسلمين بالخشب والحجارة . كانت أسماء تصيح فى الرجال ، وتحمسهم للقتال . فخجل الرجال من الفرار ، وعادوا إلى المعركة وقد عزموا على الموت أو النصر فانهزم الأعداء . ورأى النساء هذا فانطلقن للاشتراك فى الخندق يضربن كل من وقع فيه من الكفار .

عاشت السيدة أسماء مقامها فى المدينة بين التعليم والزهد والعبادة ، تفقه الدين عن رسول الله ، وأبيها أبى بكر ، وأختها عائشة أم المؤمنين .

كانت جوادة كثيرة العطاء ، لا تعرف لغدها حسابا ، تنفق ما يأتيها بجبلة صادقة وطبيعة سمحة ، تمرض المرضة فتعتق كل مملوك لها .

يقول الزبير بن العوام : ما رأيت قط أجود من أسماء وعائشة ، وجودهما مختلف : أما عائشة فكانت تجمع الشىء إلى الشىء حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه ، وأما أسماء فكانت لا تدخر شيئا لغد .

ولعبت أسماء دوراً خالداً فى هجرة الرسول ، ويذكر التاريخ بالفخر موقفها

العظيم . . فلقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وتسلل المسلمون تباعا من مكة ، وضيق الكفار على الرسول الخناق فى ليلة حرجة وكان الموت قاب قوسين أو أدنى . وفى كل لحظة ينظر القوم فيطمئنون لوجود النبى مكانه ، ويحسون أن ساعة الخلاص قد قربت . وقد اجتمعوا لها من كل قبيلة . . . ولكن شاهت الوجوه ، وعميت الأبصار ، وخرج الرسول من بينهم ، واتخذا طريقهما إلى غار ثور بأسفل مكة :

شغلت أسماء بتدبير الطعام ، فكان إذا جن المساء انطلقت به ، وبالرغم من أن قريشاً كانت منتشرة فى كل مكان تبحث عن محمد ، إلا أنها استطاعت أن تؤدى مهمتها فى خفاء وحرص منقطعى النظير .

مشى الركب متجها إلى المدينة ، وعادت أسماء إلى البيت . . . وما كادت تستقر حتى طرق الباب ، فقامت متثاقلة متعبة من الحمل ، قامت لتفتح الباب ، فإذا بها أمام وجه أبى جهل وقد ظهرت عليه علامة الحقد الدفين ، وهم أن يعنف عليها بالكلام ، ولكنها تكلفت الابتسام والهدوء .

جعل أبو جهل يسأل أسماء عن أبيها ، ويلح فى السؤال عن محمد ، ولكنها لا تعرف أين هو الآن . . أخذ يهددها ويتوعدها ولم يستطع أن يعرف شيئا منها. وطال سؤال أبى جهل فما تحولت أسماء ، فأخذ يهدد ويتوعد وخرج عن طوره لما أعيته الحيل وأهوى بكفه الغليظ على وجه أسماء رضى الله عنها بلطمة طيرت قرطها وسال الدم من أذنها .

كتمت غيظها واعتصمت بإيمانها ، ثم دخلت وأوصدت الباب فى وجهه .

﴿ أسماء وولدها عبد الله بن الزبير ﴾

حملت بعبد الله فى أحرج ساعات المسلمين ، وقامت بأعجب أدوارها وهى مثقلة به . ثم هاجرت إلى يثرب تنتظره بين يوم وآخر . فلما ولدته عكفت على تربيته . وهى ترجو أن يكون كجده وأخواله وأبيه . فشب تقياً ورعا شجاعاً .

علمه أبوه القتال والنضال ، ومرنه على الصبر فى الجهاد ، وكان يحمله خلفه فى

الهجوم ويبصره بأساليب الكر والفر ، ثم تركه رجلا قوياً جلداً .

عاشت أسماء بجانبه — بعد أن تركت بيت الزبير — معززة مكرمة فأحبته وتعلقت به ، وكم كان فرحها يوم أن خضعت له جل البلاد ، ودانت له بالخلافة . وأصبح يلقب بأمير المؤمنين .

ولم تسترح أسماء كثيرا من جهة ابنها ، فما لبث الحجاج أن ألب عليه الأمصار وذهب إليه فى حاضرة ملكه ، وحاصره ، وضيق عليه الخناق فأهمه ذلك وآلمه أن ترى أمه نهايته .

وعبد الله بهذا كان يحس نهايته ، فلقد صبر على حصار الحجاج أكثر من سبعة أشهر فى غير حصن ولا منعة ، ومن غير طعام ولا شراب إلا بئر زمزم . وخذله أصحابه وما عادوا يطيقون صبراً على الحرب والقتال ، فلا تمر ساعة إلا ويخرج أهل مكة إلى الحجاج يطلبون الأمان ، ولا تمر لحظة إلا ويسأل الناس : أقضى الله أمراً كان مفعولا ؟!

أذن « سعد » مؤذن الخليفة ابن الزبير للفجر ، واجتمع الناس فى المسجد ، وتقدم عبد الله فصلى بالناس ، ثم استأذن البقية الباقية من أصحابه أن يودع أمه « أسماء بنت أبى بكر » .

دخل عليها « وإنها امرأة ضخمة عجوز عمياء ، طوالة كأنها سرحة فى ثيابها ، وقد أمسكت بعضادتى الباب ، تصرف وجهها إليه حيثما انتقل ، تبعده وتدنيه » .

تناديه وتقول له : « يا عبد الله ، يا بنى ، أنا أمك التى حملتك ، وإنى احتسبتك ، فلا تهن ولا تجزع ، يا بنى ابذل مهجة نفسك ، ولا تبتعد إلا من النار ، يا عبد الله لا تبتعد إلا من النار ! . أستودعك الله » .

القسم الثانى :

الشرك ومظاهره

أما بعد : فإن حق الله على عباده أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا ، وأن نسبة الشرك من التوحيد نسبة الليل من النهار ، والعمى من الابصار ، يعرض للأمم الموحدة كما يعرض الظلام للضياء ، ويطرأ عليها كما تطرأ الأسقام على الأجسام . غير أن الظلام باعث لنوم الأبصار لإفادة الراحة للأشباح . أما الشرك فعلة لنوم البصائر الموجب لشقاء الأرواح ، وإذا كان حفظ الصحة بالغذاء والدواء ، فإن حفظ التوحيد بالعلم والدعوة . ولا يحفظ التوحيد علم كعلم الكتاب والسنه ، ولا تجلى الشرك دعوة كالدعوة بأسلوبهما .

وقد مرت أعصر أهمل جل العلماء فيها شأن الدعوة أو حادوا فيها عن أسلوب القرآن والحديث ، فجهل جمهور المسلمين عقائد الاسلام أو خفى عليهم ماينافيها ، وطال عليهم الأمد ، فطرأ عليهم ما طرأ على الأمم قبلهم من عقائد زائفة وبدع سائدة ، حتى ظنوا الاسلام جنسية تتمشى مع الأنساب ، لا أنه عقائد وآداب تنال بالتلقين والاكتساب ، فإن منّ الله عليهم بمن يتلو عليهم الكتاب ويعظهم بآياته كانوا أشبه حالا بالذين وصفهم الله بقوله (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) بل كم سطوا وبفسادهم اغتبطوا .

أفضت أمة خاتم النبيين إلى ما أفضت إليه أمم الأنبياء الأولين ، فكانوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، وكاد دين الاسلام يعتريه ما اعترى الأديان قبله ، فتطغى بدع أهله على سننه وتغشاها ، لولا ما خص الله به هذا الدين من حفظه بحفظ كتابه ، وبقيام علماء ربانيين على تبليغه . قال تعالى (إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم

ظاهرون ، أخرجه الشيخان ، وفسر البخارى هذه الطائفه بأهل العلم ، وقال أيضا « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود والطبرانى فى الأوسط وصححه الحاكم واعتمده الأئمة .

الحاجة الى معرفة الشرك ومظاهره

الانسان جسم وروح ، وهو بجسمه ظلمانى من عالم الشهادة يميل إلى كل ما هو جسمانى من عالم المادة مثل وسائل الكسب والنسل ؛ وهو بروحه نورانى من عالم الغيب يطلب ما هو روحانى معقول من علم ودين ؛ فالانسان بجسمه يهوى دنيا وعادة ، وبروحه يحب دينا وعبادة ؛ وحظه من الكمال على مقياس تأليفه بين جزميه المتضادين وتوفيقه بين مطالبهما المختلفه ، وفى الكتاب العزيز (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعا فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ولا تكونوا كلاً على الناس » رواه الديلمى والخطيب وابن عساكر فى تاريخهما كما فى الحاوى للسيوطى (٢ : ٢٠٢) وكشف الخفاء للعجلونى (٢ : ١٦٩)

وانقطاع الانسان إلى مطالب روحه إضرار بإنسانيته يفقدها القوة التى تحفظ لها سيادتها على ما حولها ، ويعدمها النسل الذى به بقاء نوعها ، ومما صح معناه وإن لم تصح نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : لا رهبانية فى الاسلام .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن لكل أمة رهبانيه ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله أخرجه أحمد والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب ، كما فى الدر المنثور للسيوطى « ٦ : ١٧٨ »

واكتفاء المرء بمراغب جسمه يذهب ميزة إنسانيته عن بقية الحيوانات ويلحقها بالبهائم والعجماوات ، بل يضعها دون مرتبة الأنعام كما قال تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)

على أن الانقطاع لخدمة الروح والافراط فى التعبد مما يقل عروضه للانسان ، والذى يغلب عليه هو مايتفق وجسمانيته مما يناله الحس ويحويه عالم الشهادة ، فتجد أكثر الناس فاقداً للعلم الذى يصل روحه بعالم الغيب ، ومن فاته ذلك العلم فإما أن ينكر الدين والعبادة فيكون دهرياً ، وإما أن يمثل معبوده فى صور مادية حسية يخضع لها روحه فيكون مشركا ، كما قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

وروى أحمد عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله (ص) خطبهم ذات يوم فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقال له من شاء أن يقول : كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ، قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه نقله ابن كثير فى تفسيره وذكر معه روايات أخر فى معناه (٤ : ٤٨٦) وسترى - إن شاء الله - مصداق ميل الانسان إلى المادة والشرك فى الفصول التى نعرض فيها لعروض الشرك فى الأمم . فحكم الطبيعة يغرى بالشرك ، ونص الشريعة يدعو إلى مزيد التيقظ فى التحفظ منه ، وتاريخ الأديان يكشف عما فى ذلك من تسويل الشيطان وخدع النفس .

لعلك لا تجد فى عيوب النفس ونقائص الانسان ما يضاهى الشرك فى اقتضاء طبع المتدين له وخفاء مساربه إلى نفسه ودفاع المتأولين عنه ، فكان لزاما على من يهتم لسعادته فى الدار الباقية أن يعترف بحاجته الشديدة إلى معرفة الشرك ومظاهره وأن يعتنى كل الاعتناء بالبحث عن كل ذريعة إلى هذا الداء ليتقيه أيما اتقاء فلا يسرى إلى جنانه ولا يعلق بلسانه ولا يظهر على شىء من أركانه . وكان من آيات المرشد النصوح ، وأخص مظاهر نصحه أن يجعل أولى ما يتقدم به إلى العامة وأول ما يقرع به أسماعهم التحذير من الشرك ومظاهره وبيان مدلوله وأنواعه ، ثم الصبر على ما يلحقه لذلك من أذى جاهل متحمس ومغرض متعصب وضال متأول .

إن القرآن العظيم يقص علينا فى جلاء ووضوح أن أول ما يدعو إليه الانبياء والمرسلون - صلوات الله عليهم أجمعين - هو توحيد الله ، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره . وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم فعنيت بالدعوة إلى التوحيد والتحرز من الشرك والتحذير منه وما ذلك إلا لشدة الحاجة إلى معرفته . وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة فى الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين .

هذا الكتاب العزيز فاقرأ وتدبر تجد السور مكيها ومدنيها تفيض القول فى حديث المشركين الغابرين والمعاصرين . ولا تكاد تخلو سورة من هذا الحديث ولا تكاد تجد غيره فى سور كثيرة . وأول ما نزل الآيات الخمس الأول من سورة العلق فلم تخل من الاشارة إلى التوحيد والتعريض بالوثنية للأمر فيها بالقراءة باسم الرب والتذكير بنعمه فى الخلق والتعليم . وآخر ما نزل آية المائدة فى إكمال الدين فسدت باب الابتداع . ومن أسلوبه الحكيم جمعه فى دعوته بين بيان التوحيد ومزاياه ؛ وإيضاح الشرك ودناياه .   وبضدها تتميز الاشياء .

وهذه أطوار البعثة من حين الامر بالانذار المطلق فى سورة المدثر ، إلى الامر بانذار العشيرة ، إلى الأمر بالصدع بالدعوة ، إلى الأمر بالهجرة ، إلى الإذن بالقتال إلى فتح مكة إلى الاعلام بدنو الحمام ، لم تخل من إعلان التوحيد وشواهده ومحاربة الشرك ومظاهره ، ويكاد ينحصر غرض البعثة أولا فى ذلك ، فلا ترك النبى صلى الله عليه وسلم التنديد بالأصنام وهو وحيد ، ولا ذهل عنه وهو محصور بالشعب ثلاث سنوات شديدات ، ولا نسيه وهو مختف فى هجرته والعدو مشتد فى طلبه ، ولا قطع الحديث عنه وهو ظاهر بمدينته بين أنصاره ، ولا غلق باب الخوض فيه بعد فتح مكة ، ولا شغل عنه وهو يجاهد وينتصر ، ويكر ويفر ، ولا اكتفى بطلب البيعة على القتال عن تكرير عرض البيعة على التوحيد ونبذ الشرك .

وهذه سيرته المدونة وأحاديثه المصححة فتتبعها تجد تصديق ما ادعينا وتفصيل ما أجملنا .

وهذه أركان الاسلام الخمس إنما شرعت كسائر العبادات للاحتفاظ بالتوحيد والابتعاد من الوثنية ، فلم يكتف فى الشهادتين بالتوحيد المجرد حتى صرح بنفى التعدد وحصر التشريع فى شخص المرسل بالتبليغ ، ولم يقتصر فى الصلاة على افتتاحها بالتكبير الذى فيه تعريض باطراح الأوثان حتى خللت به ، وكرر فيها مخاطبة رب العالمين بإياك نعبد وإياك نستعين ، وزكاة المرء شعار غناه ودليل اعترافه للرب

بجلال نعماه، وأنه لا دخل فيها للأصنام وكل ما سواه، والصوم يذر فيه الصائم شهوته وطعامه وشرابه من أجل مولاه، ويراقبه - وهو صائم - ولو انفرد بمحل سكناه، والحج فاتحته الإحرام المصحوب بالتلبية المتكررة فى كل حال. وهى صريحة فى حياطة التوحيد بنكران الشريك.

قال أبو إسحاق الشاطبي فى الموافقات: نحن نعلم أن النطق بالشهادتين والصلاة وغيرهما من العبادات إنما شرعت للتقرب بها إلى الله والرجوع إليه وإفراده بالتعظيم والاجلال، ومطابقة القلب للجوارح فى الطاعة والانقياد. (٢ : ٣٨٥)

وإن لم يكن بعقلك بأس فستسلم معى شدة عناية بعثة خاتم النبيين ببيان الشرك وعدم الاكتفاء بشرح التوحيد، وستعجب معى من قلة اهتمام علمائنا بذلك كأن لا حاجة بالمسلمين إليه، تجد فى كلامهم على الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة أو لا توجد عادة، ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول، فيحددون الشرك ويفصلون أنواعه ويعددون مظاهره حتى يرسخ فى نفوس العامة الحذر منه والابتعاد من وسائله، ولا يفقد المتأخر نص من قبله فى جزئية من ذلك.

نتج عن قلة الخوض فى هذا الموضوع أن صار الشرك أخفى المعاصى معنى وإن كان أجلاها حكما، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم يتبرءون منه ويغضبون كل الغضب إن نسبوا إليه، ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون، ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمى لهم عقائد الشرك وأعماله بأسماء تدخل فى عقائد الاسلام وأعماله، ثم يدافع عنهم ويحشرهم فى زمرة أهل السنة، ويشنع على العلماء الناصحين، فعمت الحاجة إلى معرفة الشرك ومظاهره ولهذا عرف جميع الأنبياء بحكم الشرك، قال تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين)

فبيان العلماء لمسائل الشرك أداء للأمانة وقيام بواجب الأمة بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم رجاء لصلاح حال المسلمين وأن لا يكونوا حجة على هذا الدين ولا سبة بأفواه المتمدنين وهو غرض الذين ينهون عن السوء حين قالوا: معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. ممن حكى الله ذلك عنهم من وعاظ بنى إسرائيل.

الرجوع فى بيان الشرك

إلى الكتاب والسنه

يدخل المرء فى الاسلام بقوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ومعنى الجملة الأولى انه لايعترف لغير الله بقوة غيبيه تخضع لهاروحه فلا يخضع لسواه ولا يعبد إلا إياه ، ومعنى الجملة الثانيه انه لا يعبده بهواه ولا بهوى أحداً من أهل المنزلة والجاه ، وانما يعبده بما جاء به الرسول ، فمحصل الجملتين أن لا يعبد الا الله ، وأن لا يعبد الا بما شرعه على لسان رسوله ، وعلى هذين الأصلين انبنى الاسلام ، وكل مافى الكتاب والسنة تفصيل لما تضمنه هذان الأصلان ، وكل ما نافى هاذين الأصلين فهو مناف للكتاب والسنة . أجنبى عن دين الاسلام

فالداعى الى الكتاب والسنة وتفهمهما انما هو داع لتحقيق كلمتى الشهادة ، ولهذا تجد فيهما وفى كلام سلف الأمة الحث على تعلمهما واتباعهما وتحكيمهما عند النزاع والتحذير من مخالفتهما وارتكاب ما أنكراه على من تقدمنا من مشركين وكتابيين ، ونثبت من ذلك ما يحصل به - ان شاء الله - التذكير لمن يخشى .

١ — قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)

٢ — وقال أيضا (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

٣ — وفى الفرقان (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، قاله ابن كثير .

٤ وقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) فعاب على بنى اسرائيل جهلهم بكتابهم ومخالفتهم له ، ولم يكتف منهم بمجرد قراءتها

٥ — وقال (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)

٦ — وقال (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) فى ابن كثير عن ابن عباس وغيره : إن حق التلاوة كونهم يتبعونه حق اتباعه .

وفى كتاب التوحيد من صحيح البخارى عن أبي رزين : يتبعونه ويعملون به حق عمله

٧ — وقال (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)

٨ — وقال (ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

تطبيق الآيات النازلة فى السابقين

على من أشبه حالتهم اليوم

إن تنزيل الآيات النازلة فيمن قبلنا على أهل ديننا هو تطبيق للنص على الحادثة ونصيحة للمؤمنين أن لا يغتروا بالنعوت اللفظيه ، ويدعوا الصفات النفسانية التى هى أصل تلك النعوت ، فلا يفيد المرء أن ينعت بالمسلم ، وصفاته النفسانية صفات مشرك ضال أو كتابى معاند .

وقد وضع العلماء قاعدتين فى هذا الباب إحداهما قولهم « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » والثانية هى « شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ » وقد شرع الله لمن قبلنا عقائد وأعمالا أنكر عليهم مخالفتها ولم يرد ناسخ يعفينا من ذلك الانكار عند وقوع المخالفة منا ، وكثيراً ما نجد فى عبارات المفسرين أن الآية نزلت فى بنى إسرائيل مثلا ، وأنها متناولة من كان على مثل حالهم من هذه الأمة ، مثل آية الكاتمين للعلم ولعنهم ، ومثل آية (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) ويشهد للتعميم آيات وأحاديث وآثار نذكر بعضها فيما يلى :

قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) فعطف على ضمير المخاطبين من المشركين من بلغه القرآن فى زمنهم وبعد عصرهم . وقال (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) والذين يخافون الحشر هم المؤمنون ومن هم مظنة الإيمان ممن لم يطبع الله على قلوبهم فلم تخص الآية المشركين بالانذار .

وقال بعد حكاية حادثة قوم لوط (وما هى من الظالمين ببعيد) فسر البغوى

الظالمين هنا بمشركى مكة أو ظالمى هذه الأمة ، والجمع بين الوجهين غير ممتنع . وعلى كل حال دلت الآية على إلحاق المتأخر بالمتقدم فى استحقاق عقوبته متى كان على مثل حالته .

وفسر ابن كثير الآية على التعميم فجعلها بمعنى حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم والبيهقى ، وحكى عن أبى حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط ، فالآية دلت على أن ما أصاب قوم لوط غير خاص بهم ، والحديث دل على تنفيذ حكمها فيمن أشبههم ، وقول أبى حنيفة دل على مراعاة صفة التنفيذ .

وأخرج أبو داود عن ابن مسعود (رض) أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) إلى قوله (فاسقون) ثم قال :

(كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) وهذا الحديث صريح فى تنزيل ما نزل فى اليهود على المسلمين .

وروى الشيخان عن عائشة وابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال فى مرض موته : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا فقد فهما أن اللعنة غير خاصة بأهل الكتابين ، وأن المقصود تحذير المسلمين من فعلهم حتى لا تشملهم لعنتهم ، ومنزلتهما فى العلم والدين معروفة .

آثار الشرك فى المجتمع

إن كنت باحثا فى علل انحطاط الأمم فلن تجد كالشرك أدل على ظلمة القلوب وسفه الأحلام وفساد الأخلاق، ولن تجد كهذه النقائص أضر بالاتحاد وأذل للشعوب، وإن كنت باحثا عن أسباب الرقى فلن تجد كالتوحيد أطهر للقلوب وأرشد للعقول وأقوم للأخلاق، ولن تجد كهذه الأسس أحفظ للحياة وأضمن للسيادة وأقوى على حمل منار المدنية الطاهرة، وإن نظرة فى حياة العرب قبل البعثة لتؤيد ما أضفناه إلى الشرك من علل ونتائج، وان وقفة على حياتهم بعد البعثة لتبعث على التصديق بما أنطناه بالتوحيد من أسباب وثمرات وإن تلك النظرة وهاته الوقفة لمفتاحان لسر حياة المسلمين بعد عصر النبوة، وكل من قارن بين حياتنا اليوم وحياة جيراننا من غير ملتنا استيقن أن وسائل الشرك قد وجدت فى المسلمين منذ أمد وأن نتائجه قد ظهرت عليهم فلا تخفى على أحد.

إن من انتسب إلى الاسلام وافتخر بالعربية ثم رضى بالحالة الحاضرة ودافع عنها نرى بنوته للإسلام ولغته ليست لرشدة، وإنما هى لغية، والابن الشرعى للاسلام والعروبة هو من يجعل همه إعادة جدة الدين واستعادة مجد السلف الأقدمين، وابن الانسانية البار بها هو الذى - ان لم يؤازر على تحقيق ذلك الهم - لا يمنع العاملين لتمثيله ولا يحول بينهم وبين طرق تحصيله، فلن تجد كالدين الخالص مصنعا للعقول التى تسع الانسانية عدلا وللقلوب التى تسع الشعوب أخاء وللألسنة التى تسع الحياة صدقا.

هذه آيات التنزيل ليس لتكررها فى موضوع الشرك مثيل، وهذه أحاديث الرسول تحذر من كل ما هو منه بسبيل، ألا تدل تلك العناية على أن جناية الشرك أفظع جناية وأن وقاية المجتمع منه أمتع وقاية؟ ليس العجب - لو كنا نسمع أو نعقل - من حديث العلماء فى الشرك وبيانهم له، إنما العجب من سكوتهم عنه حتى يتسرب إلى نفوس الموحدين ويجرى على ألسنتهم ممتزجا بما يتلى فى شأنه من القرآن. فتجتمع فى ذات واحدة دواعى الضعف والقوة، وتظهر على نفس واحدة أعراض التفرق والوحدة، ويجرى من لسان واحد أجاج الجهل وعذب الحكمة، ثم تجد

الناحية الفاسدة من يتعاهدها بالفساد حتى تطغى . وتفقد الجهة الصالحة من يغذيها فتفنى ، ولنورد بعض ما جاء فى سوء أثر الشرك فى الفرد والمجتمع مقابلا بحسن أثر التوحيد فيهما زيادة فى تصور ضرر الشرك .

قال تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) فأفادت الآية أن المشرك فى الدنيا ذليل رعديد وجزاؤه فى الأخرى الخزى والعذاب الشديد .

وقال (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) فجمعت هاته الآيه للمشرك الخوف والفقر .

وقال (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) والظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، وأنواعه ثلاثة : ظلم فى حق الله وظلم للناس وظلم للنفس . والشرك اجتمعت فيه الأنواع الثلاثه ، فالظلم فى حق الله بعدم توحيده والظلم للمعبود مع الله بايذائه إن كان صالحا وتغليطه فى نفسه إن كان جاهلا ، والظلم للنفس بإذلالها وتعبيدها لمن هو مثلها فى الافتقار والاحتياج .

وقال مخبراً عن الموحدين (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

ومن حديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود أنه قال . يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك .

وعن أبى هريرة عند مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه .

وعن ابن عباس (رض) عند ابن أبى شيبه وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجه وأبى نعيم فى الحلية والبيهقى فى الأسماء والصفات أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ماشاء الله وشئت ، فقال : جعلتنى لله نداً؟ بل ماشاء الله وحده .

وعن حذيفة بن اليمان عند ابن أبى شيبة وأحمد وأبى داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى وصححه النووى فى رياض الصالحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان .

ومن حديث طويل عند أحمد : فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، أورده بطوله ابن كثير فى تفسيره (١ : ٠٦)

وأورد فيه عن أبى حاتم بسنده إلى ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل (فلا تجعلوا لله أنداداً) الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتى ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحه ، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلان . هذا كله به شرك .

وما أطلق عليه الشرك فى هذه الأخبار بعضه شرك صريح وبعضه ذريعة إليه فنهى عنه حياطة للتوحيد وصيانة له ، والأخبار فى هذا المعنى كثيرة ، ومن يرد الله به خيراً يهتد ببعض ما ذكرنا ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين .

وأساس الخير اتهام النفس وعدم الرضى عنها ، وقد قال الله : فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، ولا يعين على شهود النقص فى النفس كالوقوف على اجتهاد السلف الصالح ، فى سيرة الحسن البصرى الذى عاش فى القرن الأول ومات أوائل الثانى أنه قال « رأيت سبعين بدرياً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب (ص ٥٩)

هذا خطاب الحسن لأهل عصره من التابعين وتابعيهم فبماذا يخاطب أهل القرن الرابع عشر ؟

إن أهل زماننا قد رضوا حالتهم وسخطوا على نصحائهم مقالتهم وقالوا قد جاءونا بعلم جديد ، وقد سبقهم علماء أجلاء لم نسمع منهم نكرانا لهذا الأمر ، فإن كان بين هؤلاء الساخطين من قرأ شيئا من العلم زادهم جهالة بتأويل النصوص الشرعية وبصرف أقوالهم وأعمالهم الدالة على فساد اعتقادهم إلى ما يوافق الإسلام وإن كان خلاف مرادهم ، ثم زعم لهم أن ما يرشد إليه المصلحون ضلالة ابتدعها ابن تيمية .

لا . لم نأت بعلم جديد فى نظر الدين ، ولكنه جديد فى أذن المستمعين ، ومن تقدمنا من العلماء بعضهم أنكروا مثلنا فطعن فيهم وحيل بينهم وبين العامة ، وبعضهم أسرّوا الإنكار لمن وثقوا بامتثاله ، ومنهم من كتم لغلبة يأسه ومحافظته على هناء نفسه ، ومنهم من لم يكن يدرى هذا الشأن ، وإنما اشتهر بمسائل الفروع ، ثم العلماء الثقات حجة فيما يأثرون لا فيما يفعلون أو يقرون ، ولا يكون الفعل أو التقرير حجة إلا من المعصوم .

فأما تأويل النصوص فأكثره تحريف للكلم عن مواضعه وغض من مهابة ظواهرها وعظم موقعها فى النفوس .

وأما صرف أقوال العامة وأفعالها إلى غير ما أرادت منها فتغرير بها وإغراء لها على الباطل .

وأما ابن تيميه فلم يبتدع ضلالة وإنما أحيا السنة ودعا إلى الهدى واجتهد فى النصح ، وليست الدعوة إلى التوحيد بمذهب خاص ، ولكنه دين الله العام . وما جعل العوام يستخفون بما وقعوا فيه من الشرك الجلى إلا الاعتياد وجبن جل العلماء عن الجهر بالإرشاد ، والعادة — كما يقال — طبيعة ثانية ، والاسرار بالعلم إقبار له ، فى كتاب العلم من صحيح البخارى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر ابن حزم « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإنى خفت دروس العلم » طمسه « وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبى صلى الله وسلم ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلَّم من لايعلَم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً » .

ومن حكم الشعراء : وشتان بين الجهر والمنطق الخفت

وقال ابن تيمية «لولا بعد عهد الناس بأول الإسلام، وحال المهاجرين والأنصار، ونقص العلم وظهور الجهل، واشتباه الأمر على كثير من الناس لكان هؤلاء المشركون والآمرون بالشرك مما يظهر كفرهم وضلالهم للخاصة والعامة أعظم مما يظهر ضلال الخوارج والرافضة».

معنى الشرك فى اللغة

تقول شركته فى الأمر أشركه من باب تعب، شركا وشركة بفتح الأول وكسر الثانى فيهما، ويخففان بكسر الأول وسكون الثانى. وذلك إذا صرت له شريكا وشاركته كذلك وأشركته جعلته شريكا، قال تعالى (وأشركه فى أمرى) أى أجعله شريكى فيه.

ومرجع مادة الشرك إلى الخلط والضم، فإذا كان بمعنى الحصة من الشىء تكون لواحد وباقيه لآخر أو آخرين كما فى قوله تعالى (أم لهم شرك فى السموات) فالشريك مخالط لشريكه وحصته منضمة لنصيب الآخر.

ثم اجتماع الشركاء فى شىء لا يقتضى تساوى أنصبائهم منه ولا يمنع زيادة قسط على آخر. فموسى يسأل ربه إشراك أخيه له فى الرسالة، وقد أجيب سؤله لقوله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وضرورى إن حظ هرون من الرسالة دون حظ موسى. ولهذا تقول فلان شريك لغيره فى دار أو أرض أو بضاعة ولو لم يكن له منها إلا معشار العشر.

هذا فى الحسيات ومثله فى المعنويات تقول: الأبوان شريكان فى طاعة ابنهما لهما وإن كان حق الأم فى الطاعة أقوى، وتقول أبنائى شركاء فى محبتى وأنت تحب بعضهم أشد من بعض، هذا تقرير معنى الشرك لغة.

أما فى الشرع فقد فسره صاحبا الصحاح والمصباح بالكفر، وجعله الراغب على ضربين فقال «أحدهما الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى، يقال أشرك فلان بالله، وذلك أعظم كفر، قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وقال (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً).

«والثانى الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله فى العبادة وهو الرياء»

وكما لا تقتضى الشركة لغة تساوى الشركاء فى الحصص ، لا يقتضى الشرك شرعا مساواة الشريك لله فى جميع صفاته أو فى صفة منها ، بل يسمى المرء مشركا عند الشارع بإثباته شريكا لله ولو جعله دونه فى القدرة والعلم مثلا . فأما حكايته تعالى عن المشركين قولهم تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ، فالتسوية فيه تسوية فى الطاعة والانقياد لا فى القدرة على الخلق والإيجاد . فهى كآية البقرة (يحبونهم كحب الله)

إن الله جل وعلا لا يقبل أن يشرك به الأبرار ولا الفجار ولا الأشجار ولا الأحجار ، ولا يرضى شركة عظيم فى القدر والمنزلة كمن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ولا شركة عظيم فى الخلق والحجم كالشمس والقمر وسائر الكواكب . وقد رد القرآن كل شرك كيفما كان اعتباره من القوة والضعف

قال تعالى (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ـ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ـ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون — وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله)

هذا بياننا للشرك الشرعى ، فإن كان فيه طول فإنا نقصد فيما نبسط إفهام العامة وإفحام المعاندين .

وأقسام الشرك قد استوفتها آية سبأ قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)

فجعلت الآية أقسام الشرك أربعة ونفتها كلها ، ولنضع لكل قسم اسما يمتاز به (الأول) شرك الاحتياز فنفى سبحانه أن يكون غيره مالكا لشىء يستقل به ، ولو كان فى الحقارة مثقال ذرة فى العالم العلوى أو فى العالم السفلى (الثانى) شرك الشياع فنفى سبحانه أن يكون لغيره نصيب يشاركه فيه كيفما كان هذا النصيب فى المكان والمكانه (الثالث) شرك الإعانة ، فنفى جل شأنه أن يكون له ظهير ومعين من غير أن يملك معه ، كما يعين أحدنا مالك متاع على حمله مثلا (الرابع) شرك الشفاعة ، فنفى تعالى أن يوجد من يتقدم بين يديه يدل بجاهه ليخلص أحداً بشفاعته ، فهو

تعالى لم يقبل من أقسام الشركة حتى أضعفها وأخفاها ، وهى الشركة بالجاه فى تحصيل السلامة والنجاة إلا بعد الإذن للشفيع ، وتعيين المشفوع له ، وحينئذ لا تكون فى الشفاعة رائحة الشركة بل الشفاعة كغيرها من وجوه النفع هى لله وحده .

ولم يخرج عن الآية شىء من أقسام الشركة ، لأن الشريك إما فى الملك وإما فى التصرف . والأول إما أن يحتاز قسطه وإما أن يكون على الشياع ، والثانى إما أن يعين المالك ، وإما أن يعين أحداً عند المالك ، فتلك الأقسام الأربعة مرتبة ترتيبها فى الآيه ، وتلك الأقسام على ظهورها من الآية لم أر من أعرب عنها هذا الاعراب .

الشرك فى قوم نوح

أول من عرفوا بالشرك قوم نوح عليه السلام ، وأول من وقعوا فيه منهم القبوريون المنصرفون بقلوبهم إلى الموتى من صلحائهم ، فكان نوح أول رسول من الله لمقاومة الشرك وإقامة الحجة على المشركين بتذكيرهم بنعم الله ووجوب شكرها ، ودلالتهم على سوء مغبة الشرك ولزوم التبرى منه ، ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك ففقدوا رشدهم ولم يفقهوا جدال نبيهم ، وأتوا فى الدفاع عن وثنيتهم بما هو خارج عن موضوع النزاع ، وهاك ما حكاه القرآن فى هذا الشأن .

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين أن لاتعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)

فانظر إلى هذا السفه والخبال ، يدعوهم إلى توحيد الخلاق المتعال فيردون عليه بأنه بشر ، وأن من آمن به من الطبقة المنحطة فى مجتمعهم ، وأنه وهؤلاء المؤمنين لايعلمون لهم فضلا عليهم ، كأنهم علموا للأصنام فضلا على جميع الأنام فعبدوها ، واستمروا على هذا الضلال عدة أجيال ، يوصى فيها السلف الخلف بأن يعضوا بالنواجذ على وثنيتهم (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا

يغوث ويعوق ونسراً) وأخذ الخلف بوصية السلف ، فلم يستمعوا لنبيهم على قوة حجته ، ولم يتأثروا بآدابه على طول مدته ، ولما لم يجدوا مدفعا لبرهانه واستبطأوا عقوبة الله لهم بطوفانه (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)

صبر صبره هذا الرسول وثبت ثباته ، فخلدت ذكره سور القرآن وآياته ، تجد حديثه فى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر ، واختص بسورة من المفصل سميت سورة نوح ، وتجد اسمه دون قصته فى سور أخر .

وفى تكرار قصته والعناية بتصريف القول فيها حض للدعاة على سلوك خطته وزجر للأمم أن تحذو حذو أمته ، وفى ذكرنا لتلك السور إحالة للقارىء على مافيها من عبر ، ونكتفى هنا بإثبات روايات فيها بيان عن الذريعة التى انتهت بهم إلى الشرك .

ففى كتاب التفسير من صحيح البخارى عن ابن عباس قال « صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع .

« أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت » .

وأخرج الفاكهى عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال « أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح ، وكانت الأبناء تبر الآباء ، فمات رجل منهم فجزع ابنه عليه ، فجعل لا يصبر عنه ، فاتخذ مثالا على صورته ، فكلما اشتاق إليه نظره ، ثم مات ففعل به كما فعل ، ثم تتابعوا على ذلك فمات الآباء ، فقال الأبناء : ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلهتهم فعبدوها » نقله الحافظ فى الفتح .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب فى قوله : ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيراً ، قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، فنشأ قوم

بعدهم يأخذون كأخذهم فى العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ، فصوروا ثم ماتوا ، فنشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونها فعبدوها ،

الشرك فى قوم ابراهيم

غسل الأرض الطوفان من وحمر الشرك والعصيان ، فلم يبق يومئذ على وجهها إلا ناصع الإيمان ، ثم تعاقبت الأجيال حتى حنت الطباع إلى معتاد الضلال ، فقاء الشرك بعد الزوال ، وأرسل الله المرسلين (مبشرين ومنذرين وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)

بعد الطوفان بأزمان ظهرت ببابل من أرض العراق أمة الكلدان التى منها النبط قوم ابراهيم عليه السلام ، فكانوا يعرفون الله ويعبدونه ويشركون به الكواكب ويتخذون لها الأصنام تماثيل .

وقال رشيد رضا فى تفسير المنار ، اتخذوا الكواكب أربابا لما لها من التأثير السببى أو الوهمى فى الأرض ، وتوسعوا فى إسناد التأثير إليها حتى اخترعوا من ذلك مالا شبهة له ، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب النار وغير الأرض والسماء يدبر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة . إلخ إلخ

تطور الشرك عند الكدانيين فبعد أن كان بسيطا مستمداً من حسن الظن ببعض العبّاد والمبالغة فى تعظيمهم من غير وقوف عند حد مشروع ، أصبح نظريا مستمداً من خطأ العقل وخيال الفلسفة الشعرية ، فإذا كان شرك قوم نوح يرجع إلى مظاهر الصلاح فى الناس ، فإن شرك قوم إبراهيم ناشىء عن أسرار الطبيعة ودقائق الفلك . فشرك الأولين من شرك التقريب والشفاعة ، وشرك هؤلاء من شرك الأسباب والإعانة ، ولكن فيه روحا من شرك التقريب أيضا ، لأن فيهم من يعبدون الأصنام التى تمثل لهم الكواكب باعتبارها واسطة بينهم وبين الله . وهؤلاء يستعظمون التوجه لله من غير واسطة .

قال ابن النديم فى الفهرست ، ويقول بعضهم إنه إذا قرب باسم البارى كانت

دلالة القربان رديئة لأنه عندهم تعد إلى أمر عظيم وترك ما هو دونه لما جعله متوسطاً فى التدبير ، (ص ٣ ، ٤)

هؤلاء الكلدانيون هم الذين بعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام وحاجهم فلم يدافعوه بغير التقليد لآبائهم . ونبههم إلى صفات المعبود بسؤالهم عن قدرة أصنامهم على النفع والضر وسماع من يستغيثها وتكليمهم ، فاعترفوا بعجزها ولكن حملتهم الحمية على الانتقام لها ، كما تساءل عن أكل تلك الأصنام لما يقدم لها ، تنبيها على خطل رأى فاعليه ، فى الصافات (فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون)

ومعنى راغ : مال ، ويزفون : يسرعون .

والمعنى أن إبراهيم كسر الأصنام بعد سؤاله لها سؤال استخفاف ، فأسرع إليه عبدتها منكرين ، فوبخهم على عبادتهم لما صنعوه بأيديهم .

وفى الشعراء (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)

وفى سورة الأنبياء (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين)

أصر الكلدانيون على وثنيتهم مع قيام الحجة عليهم ، ولجأوا بعد هذا العناد إلى القوة شأن أهل البغى والاستبداد ، ولم يقطع ابراهيم أمام تصلبهم دعوته ولا خفف لتوعدهم إياه لهجته ، بل استمر يقرع بآيات التوحيد آذانهم حتى غصوا به على انفراده واجتماعهم وكون السلطان سلطانهم ، وإذا لم ينتفعوا برجاحة حجته وصراحة كلمته ، فما أضيع البرهان عند المقلد ، وإذا هو لم يخضع لطغيانهم ولم يبال

بتهديدهم ، فإن سلطان الله فوق سلطانهم ووعده أصدق من وعيدهم ، فقد جعله فى سلام من الحريق الأليم وبشره بغلام حليم ، وتلك عاقبة المصلحين التى وعدهم بها رب العالمين إذ قال : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

الشرك فى العرب

قدمنا الخبر عن شرك قوم نوح لما كانوا أئمة المشركين وقدوتهم الأولين ، وأعقبناه بشرك قوم إبراهيم ، إذ كانت وثنيتهم مركبة من وثنية قوم نوح ، والضلال فى درس الطبيعة واقتفاء خيال الشعر دون الاكتفاء بحقائق العلم ، وقفينا على ذلك بشرك العرب لأنه متصل بالفريقين بأوثق سبب ، وختمنا به هذا الحديث لانتهائه ببعثة خاتم النبيين ، الذى بشريعته ندين ، ومنها تعرفنا أخبار المشركين .

شرك العرب متحد النوع بشرك قوم نوح ، حتى أن أوثان أولئك وقعت إلى هؤلاء ، وسبب ابتداع الشركين واحد عند الفريقين ، وللعرب اتصال بالكلدانيين فإن الجميع أبناء سام ، ولغاتهم متحدة الأصل ، ولهم علاقة خاصة بإبراهيم ، فهو جد العدنانيين ومن بنى عمومة القحطانيين ، ثم هو الذى رفع قواعد البيت معقد عزهم ومنتهى فخرهم ، وترك بينهم ابنه اسماعيل ظهيره فى مأثرة بناء الكعبة يشرفهم الحنيفية ويبشر عليهم بما فى صحف ابراهيم الذى وفى ، وكانوا يعرفون تلك الرابطة النسبية ويعترفون له بتلك المأثرة التاريخية ، ويزعمون أنهم حنفاء على ملته ، فلم ينكر القرآن عليهم إلا زعمهم هذا ، إذ جاء فيه (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين)

والذى دعانا الى بيان الشرك فى هذه الطبقات الثلاث هو الرغبة فى شرح حاله وتوضيحه فضل توضيح ، وخصصنا هذه الأمم بالذكر لما بينهما من الروابط والأشباه ، واقتصرنا عليهم لشهرتهم فى وصف الشرك ، ولم نتوسع بالتعرض لغيرهم لأنا لم نقصد الى تاريخ الأديان فى مختلف الأزمان والأوطان ، ولا الى تقصى ما ذكر منها فى القرآن .

وسبب مفارقة العرب للحنيفية وتسرب الوثنية إليهم ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى يجر قصبه فى النار، وكان أول من سيب السوائب. هذا لفظ البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء، زاد مسلم فى روايته وبحّر البحيرة وغيّر دين اسماعيل ولحى بضم ففتح، والقصب بضم فسكون يجمع على أقصاب وهى الأمعاء.

وفى كتب الأخباريين وأصحاب السير تفصيل عن نشوء الشرك فى العرب وسبب وثنيه عمرو بن لحى، تجده فى سيرة ابن هشام وفى أخبار مكة للأزرقى، ونسوقه هنا من لفظ ابن الكلبى، قال فى فاتحة كتابه «الأصنام»

«حدثنى أبى وغيره — وقد أثبت حديثهم جميعاً — أن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتى ملئوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا فى البلاد والتماس المعاش.

وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم واسماعيل عليهما السلام.

ثم وصل بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم واسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه، فكانت نزار تقول إذا ما أهلت:

لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك. إلا شريك هو لك. تملكه وما ملك.

فيوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده، يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى مايوحدوننى بمعرفة حق إلا جعلوا معى شريكا من خلقى.

« فكان أول من غيّر دين اسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية عمرو بن ربيعة - وهو لحى - بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدى، وهو أبو خزاعة، وكانت أم عمرو بن لحى فهيرة بنت عمرو بن الحارث، ويقال قمعة بنت مضاض الجرهمى (قمعة بفتحتين وبكسر فتشديد) وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة، فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى الولاية وقاتل جرهما ببنى إسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم.

« ثم انه مرض مرضاً شديداً فقيل له إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال ما هذه؟ فقالوا نستسق بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة (ثم ذكر أسافا ونائلة والأصنام الخمسة التى كانت لقوم نوح ثم قال) فلما صنع هذا عمر بن لحى دانت العرب للأصنام وعبدوها واتخذوها ».

وكلام ابن الكلبى أولا يعطى أن منشأ وثنية العرب تبرك المغلوبين من بنى اسماعيل على الحرم بحجارته، وذلك قبل رئاسة عمرو بن لحى الذى انتزعها من جرهم أخوال بنى اسماعيل، وكلامه أخيراً صريح فى أن عمرو بن لحى هو الذى أحدث هذه الوثنية فاقتدى به العرب، والأول بالبساطة أنسب وإلى بداوة العرب أقرب وبسنة النشوء والارتقاء أشبه، والثانى هو صريح خبر المعصوم الذى هو حق لا ريبة فيه ولكننا نرى الجمع بين الأمرين ميسوراً فلا ضرورة بنا إلى الترجيح.

ذلك أن عصر المنازعات بين بنى اسماعيل الذى حدث فيه التبرك بحجارة الحرم قبل أيام عمرو بن لحى إنما وقع فيه ذلك التبرك من النازحين عن الحرم المتقلبين فى البوادى، فكان ذلك التبرك ذريعة الى الوثنية فى بعض بنى اسماعيل ومن رأى رأيهم من القبائل البادية النائية عن الحرم.

أما وثنية عمرو بن لحى التى نقلها من الشام فأظهرها بالحرم نفسه وفرقها فى الحجاج ، فلم تكن قبله أصنام بالحرم حينما كان بنو اسماعيل ينقلون حجارته الطواف بها ، ولو كانت به يومئذ أصنام لقدموا نقلها على نقل مطلق الحجارة . وتقدم هذا الطواف بالحجارة خارج الحرم هو الذى سهل على عمرو بن لحى إعلان الوثنية داخله وخارجه ، إذ لو لم يأنس الناس قبله بمبادىء الوثنية ما قبلوها منه لما دعاهم إليها .

فبنو اسماعيل أول من ابتدع فى العرب مبادىء الوثنية ولكن على وجه ضعيف غير مشتهر ولا منتشر ، وعمرو بن لحى أول من ابتدع فيهم صريح الوثنية على وجه قوى وبصفة عامة ، هذا وجه الجمع عندى بين حديث المعصوم وخبر النقلة ، وإطلاق القول بأن عمرو بن لحى أول من غير دين اسماعيل صحيح ، نظراً لكونه الرئيس المطاع بالحرم ، والحرم معقل الدين وبأهله يقتدى سواهم فظهور الوثنية منه هو الذى سهل تعميمها فى سائر الأحياء والقبائل ، وضمن لها الحياة والرسوخ ، كما أن إسلام الحرم بعد فتح مكة هو الذى عمم هذا الدين بين العرب وسهل عليهم مفارقة ما ألفوه فى جاهليتهم ، فلولا ابتداع عمرو بن لحى لبقى الحرم سالما من الوثنية ، فلم يكن لظهور مبادئها ببعض البوادى شأن ، ولم ترسخ عروقها فى الجهات التى ظهرت بها ، ولم تقو على الانتشار منها إلى جهات أخر ، ولم تتعاص على أى محارب لها ، فكان المسئول عن هذه الوثنية هم أهل الحرم ، والمسئول عنهم هو رئيسهم عمرو بن لحى ، فكان هو أول من غير الحنيفية بإطلاق .

ومشركوا العرب كأغلب من قبلهم لم يكونوا يعتقدون فى شركائهم أنهم يماثلون الله فى صفاته أو يشاركونه فى إيجاد مخلوقاته ، وإنما كان شركهم شرك تقريب وتقليد فقد أخبر عنهم القرآن أنهم يفردون الله بالقدرة على الخلق والإيجاد وبالملك العالم علويه وسفليه . ونطقت أشعارهم بإحاطة علم الله بكل شىء وحسابه الخلائق فى الدار الأخرى . وما دلت عليه الآيات من إنكارهم للبعث لا يوجب أن يكون ذلك عقيدة لهم عامة ، فقد يكون عقيدة لبعضهم وقد يكون علالة للنفس وإجابة لهواها فى الفرار من ضبط الإسلام لأعمالها وفطمه لها عن كثير من شهواتها ، ولم

تزد عقيدتهم فى أوليائهم وشركائهم عن تعليقهم الآمال عليهم فى تحقيق مآربهم من الله لما لهم عنده فى زعمهم من المنزلة والجاه، كما ينظر الناس إلى من يتصلون به من حاشية أمير أو ملك فى إسماعه مطالبهم.

فأما عقيدتهم فى أوليائهم الذين يسميهم القرآن بهذا الاسم وبالشركاء وبالشفعاء وبالآلهة، فقد أعربت عنها آيتا يونس والزمر، وهما (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله — والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)

وأما عقيدتهم فى ملك الله وقدرته فقد أفصحت عنها آيات منها فى سورة المؤمنون (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله، قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون لله، قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون) ومنها فى الزمر (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ومنها فى الزخرف (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم — ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)

ولم تزل وثنية العرب من زمن عمرو بن لحى تطغى وتشتد وتنتشر وتمتد، حتى عم الفساد كل حى وناد وقلبت الطباع جل ما للحياة من سنن وأوضاع، فكان احتياج تام إلى إصلاح عام يشمل الفرد والمجتمع وينزع بهما أكمل منزع يرجع للعقول رشدها، وللقلوب طهرها وللنفوس تقاها، ولا يقوى ذلك الإصلاح على التغلب فى ميدان الكفاح إلا أن يصدر عن نفس تثبت للعوادى التى تتزلزل لها الرواسى، وتدفع عنها عدوى الادناس ولو اختلطت بكل الناس؛ ثم يقوم على أصول مجلوة كتلك النفس ثباتاً وقوة لا تبلى الايام جدتها ولا تنهى الطبيعة مدتها بل تصبو إليها العقول فى رقيها ولا تنبو هى عن الاذهان فى هويها.

ولقد من الرب الرحيم بتلك النفس. فكانت نفس محمد الفذة فى الطهارة والقدس وبتلك الاصول المجلوة فكانت آيات الكتاب المتلوة، هنالك نهض الاصلاح نهضته وأبلغ العالم دعوته (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)

الغلو فى العبادة

الذى أوقع الجهال فى الشرك والضلال هو المبالغة فى تعظيم بعض المخلوقات حتى ألحقوه بالتعظيم الخاص برب الأرض والسموات . ومن هنا نشأت عبادة غير الله التى استحق أصحابها وصف الشرك واستوجبوا بها سخط مالك الملك فدعت الحاجة إلى بيان معنى العبادة ليفرق بين ما هو منها شرعى وما هو منها شركى

فى المصباح « عبدت الله اعبده عبادة . وهى الانقياد والخضوع والفاعل عابد والجمع عباد وعبدة مثل كافر وكفار وكفرة ثم استعمل فيمن اتخذ إلها غير الله وتقرب إليه فقيل عابد الوثن والشمس وغير ذلك »

وفى مفردات الراغب « العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال . وهو الله تعالى ولهذا قال : أن لا تعبدوا إلا إياه . . . ويقال طريق معبد أى مذلل بالوطء وبعير معبد مذلل بالقطران وعبدت فلاناً إذا ذللته وإذا اتخذته عبداً قال تعالى أن عبدت بنى إسرائيل »

وفى فروق العسكرى « الفرق بين العبادة والطاعة أن العبادة غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الانعام . ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود . والطاعة الفعل الواقع على حسب ما أورده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك وتكون للخالق والمخلوق . والعبادة لا تكون إلا للخالق . والطاعة فى مجاز اللغة تكون إتباع المدعو الداعى إلى ما دعاه إليه وإن لم يقصد التبع كالإنسان يكون مطيعاً للشيطان وإن لم يقصد أن يطيعه ولكنه اتبع دعاءه وإرادته (ص ١٨٢) .

ودل كلام هؤلاء الأئمة أولا أن العبادة كيفما عبر عنها وكيفما تصرفت فى الاستعمال تحمل معنى الذل والسهولة فالعبد المملوك ذليل بالرق والطريق المعبد سهل على المارة . وتفسير العبادة بالانقياد والخضوع لأنهما لازمان للذل والسهولة . وتفسيرها بالطاعة توسع والعبارة المعربة عن العبادة هى ما يعبر عنه الجمع بين كلام المصباح أوله وآخره . وهو الانقياد والخضوع على وجه التقرب وثانياً

أن سببها الذى تستحق به هو الانعام والافضال وثالثا أن شرطها معرفة المعبود ورابعا أن مستحقها هو الله وحده .

والتعريف الذى استخلصناه من المصباح يتضمن ذلك كله فإن الانقياد والخضوع إلى أحد يبعث عليهما الرغبة فيما يملك من نعمة والتقرب اليه يستدعى معرفته ، ثم من اعتقد انفراد الله بالنعم تقرب اليه وحده بالعبادة ومن جهل فظن غير الله منعما بشىء اعتقد استحقاقه أيضا للعبادة فوقع فى الشرك . فكان هذا التعريف أصدق عبارة عن معنى العبادة .

واذا كانت العبادة هى الانقياد والخضوع على وجه التقرب فإن الإله هو المعبود تلك العبادة . فمن قصرها على الله فقد وحده وعبد عبادة شرعية ومن وجد هذا المعنى فى نفسه لغير الله فقد اتخذ ذلك الغير الها وكانت عبادته شركية سواء سماه الها أم لم يسميه الها وسواء عبر عن المعنى الذى فى نفسه بالعبادة أم عبر عنه بعبارة أخرى ، فإن تسمية الشىء بغير اسمه لا يبطل حقيقته ولا يغير حكمه ، وهل ينتفى الاسكار أو الحرمة عن الخمر اذا سميتها ماء مطلقا ؟

واذا تصورنا معنى العبادة فلنتعرف بعض صورها المعهودة عند العرب ذلك أن عبادتهم لأصنامهم كانت بالمبالغة فى تعظيمها والبناء عليها والطواف حولها والتمسح بها واتخاذ ما يذكر بها فى منازلهم فلا يسافر مسافرهم حتى يكون آخر ما يصنع فى منزله التمسح بصنمه ولا يقدم قادمهم حتى يكون أول مايصنع اذا دخل بيته التمسح به أيضا . ومن صور عباداتهم لها زيارتها والنذر لها وجعل نصيب لها فى حروثهم وأنعامهم والذبح عندها ثم قسم ماذبح على الحاضرين واستشارتها فيما ينوون احداثه ويعتقدون أنهم يكلمون منها ، ووضع الأقداح عندها للاستقسام بها وذلك من استشارتها فاذا عزموا على عمل أو سفر أو وقعت بينهم خصومة كانت الحكومة للأصنام بواسطة الأقداح فاذا استقسموا بها عملوا على ما خرج منها وانتهوا اليه . ومن ضروب عبادتهم لها الحلف بها . قال أوس بن حجر .

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وقد حكى الله عنهم نذرهم فى حروثهم وأنعامهم فقال وجعلوا لله مما ذرأ من

الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون

قال البغوى : « كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللأوثان نصيبا فما جعلوه لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها فان سقط شيء مما جعلوه لله فى نصيب الأوثان تركوه وقالوا ان الله غنى عن هذا وان سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردوه الى الأوثان وقالوا إنها محتاجة وكان اذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به ، واذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوا لله »

وكان غرض المشركين من هذه العبادة التوقى من المكروه والترجى للمحبوب باتخاذ الأصنام وسائط بينهم وبين الله لاعتقادهم أنهم أقل من أن يرحمهم الله بدون توسطها . فاشتد لذلك خوفهم من الأصنام وتعلقت قلوبهم بها فى الاستشفاء والاستسقاء واستدرار الأموال واستيهاب الذرية وتعرف العواقب للاقدام أو الأحجام على انشاء سفر أو عقد نكاح أو غيرهما .

ومن العرب من أنكر عبادة الأصنام قبل الإسلام . منهم زيد بن عمرو بن نفيل . قال :

تركت اللات والعزى جميعا   كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها   ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا هبلا أزور وكان ربا   لنا فى الدهر اذ حلمى صغير

ولكن لم يقتد بهؤلاء العقلاء القليلين غيرهم فلم يثمر انكارهم ثمرة فى المجتمع حتى جاء الاسلام بقوته الروحية ومبادئه الراسية فأعلن القرآن أن التقرب لغير الله لنيل غرض من أغراض الحياة على غير الوجه المعتاد شرك بالله يبعد من رحمته ويستنزل شديد نقمته . وكشف عن هذا الضلال بضرب كثير من الأمثال فى سورة النساء (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وفى الحج (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح

فى مكان سحيق) وفى العنكبوت (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)

ونفى تعالى اتخاذ الوسائط فى قبول التوبة والجزاء على الأعمال فقال (ومن يغفر الذنوب إلا الله - ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء - إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون — إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم)

قال القرطبى فى تفسيره « ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم فى الدين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه افتراء على الله (قد ضلوا وما كانوا مهتدين)

ونفى الخوف من المخلوق بلا سبب عادى ، فقال عن إبراهيم (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون ، إنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون)

وحكى ما دار بين هود وقومه بقوله (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا إنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) وخاطب خاتم النبيين بقوله (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد)

وأنكر نسبة النفع والضر لسوى الله فقال (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير — قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ـ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً .

وكل أنواع ضلال المشركين قد تعددت فيها آيات القرآن وتنوعت لها أساليبه فكشفتها كل الكشف ووصفت أدواءها غاية الوصف ، وأبانت وجه الحق فيها أبلغ إبانة وأعانت على سلوك الكمال لمن وفق إليه أنفع إعانة ، فولى الشرك إذ ذاك الأدبار واختفى أيام ظهور القرآن عن الأبصار ، فأصبح اسمه من أنصاره بالأمس مهجوراً . ولم يبق فى مظاهره بالاحترام مذكوراً ، فلما اختفت عنا معانى القرآن خلع عليه الشيطان ما شاء من ألوان وقدمه لنا بعناوين أخر غرت من لم يكن تحت راية القرآن والأثر ، فقبلوا آثاره دون اسمه ، ولم يهتم إبليس للنفار من اسمه بعد حياة رسمه ، وتمثل الشرك لهذه الحال بقول من قال :

تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا الى الآثار

التبرك وسد الذرائع

إن الباحث فى أسرار الحياة وما يحدث فى هذا العالم من أحداث يجد لكل شىء سببا ، وينتهى الى الشعور بقوة غيبية تعلو عن الأسباب وتستغنى عنها ونفتقر نحن اليها فى تيسير الأسباب لتيسير الأعمال ، ومن أظهر مقومات الإيمان توحيد تلك القوة الغيبية وتخصيصها بالله ، وفى الذكر الحكيم (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد)

ثم إن من الأعمال ما تكون له أسباب خفية لا يدركها قاصر النظر ، فيرى أن أصحابها ارتفعوا عن الحاجة الى الأسباب العادية ، وأصبحوا ذوى مكانة غيبية وأولى منزلة خصوصية ، ومن الناس من تظهر على أيديهم وفى أحوالهم آيات يعبر عنها المتكلمون بالمعجزات فى حق الأنبياء وبالكرامات فى حق الأولياء ، فيكون هؤلاء الانبياء والاولياء مظهراً من مظاهر قدرة الله تعالى يدعو المتبصر الى احترامهم والاقتداء بهم .

ولضعاف الايمان وقليلى المعرفة وبسطاء العقول أمام الفريقين ، أهل الآيات الغيبية وأصحاب الأسباب الخفية موقفان ، أحدهما اعتقاد أن ذواتهم مصدر لتلك

الخوارق الحقيقية أو الوهمية فلا يضيفونها إلى الله وثانيهما إعتقاد أن لهم نفوذا فى إرادة الله وتحكما فى قدرته يستوجبان التوسط بهم إليه فى تحصيل ما قصرت عنه الأسباب ومن اعتقد أحدهذين الاعتقادين فقد اعتقد عقيدة الكلدان فى الكواكب أو عقيدة العرب فى الأصنام فكان مشركا صرفا وإن أشبه الموحدين فى شيء من أقوالهم وأفعالهم الدينية .

وهناك موقف ثالث مع ذينك الفريقين وهو التبرك بآثارهم وأماكنهم ومايضاف إليهم فى حياتهم من نحو ثيابهم وحيواناتهم أو ينسب إليهم بعد مماتهم من مثل تماثيلهم وأبنية قبابهم ، وليس هذا التبرك نفسه شركا ولكنه قد يكون ذريعة إليه كما وقع لقوم نوح فى التبرك بصالحيهم والعرب فى التبرك بحجارة حرمهم . وتشابه الباعث على الوثنية فى أمتين بينهما آلاف السنين مما يبعث على الحذر من هذا التبرك ، ويقوى الظن فى اقتضائه للشرك .

ونحن نشرح مادة التبرك ثم نقفى عليه بما جاء فيه اثباتا ونفيا ، ونعقبه بوجه الجمع بين الروايات . قال فى الصحاح « البركة النماء والزيادة . والتبريك الدعاء بالبركة .

وقال الراغب « البركة ثبوت الخير الالهى فى الشيء . قال تعالى لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء فى البركة والمبارك ما فيه ذلك الخير . . . ولما كان الخير الالهى يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة ،

وفى كتاب الصلاة من صحيح البخارى « باب المساجد التى على طرق المدينة والمواضع التى صلى فيها النبي (ص) » ثم أسند إلى موسى بن عقبة أنه قال « رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق فيصلى فيها ويحدث أن أباه كان يصلى فيها وأنه رأى النبى (ص) يصلى فى تلك الأمكنة ، فى فعل عبد الله بن عمر وابنه إثبات التبرك بآثار النبي (ص)

وفى الموطأ وكتاب الحج من صحيح البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

أنه قال للحجر الأسود « أما والله أنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت النبى (ص) استلمك ما استلمتك » هذا لفظ البخارى . وفيه نفى للتبرك قال الباجى فى المنتقى ما خلاصته بين عمر للناس أن تقبيل ذلك الحجر إنما هو اقتداء بالرسول وليس تعظيما لذات الحجر أو لمعنى فيه حتى يكون من تعظيم الجاهلية أوثانها لاعتقاد النفع والضر فيها (٢ : ٢٨٧)

وفى رسالة البدع والنهى عنها أن مؤلفها ابن وضاح قال « سمعت عيسى بن يونس مفتى أهل طرسوس يقول أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى (ص) فقطعها لان الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة » قال عيسى بن يونس وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع » (ص ٤٢)

وقال الحافظ فى الفتح « ثبت عن عمر انه رأى الناس فى سفر يتبادرون إلى مكان فسأل عن ذلك فقالوا قد صلى فيه النبى (ص) فقال من عرضت له الصلاة فليصل والا فليمض فانما هلك أهل الكتاب لانهم تتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا (١ : ٤٥٠) ورواه ابن وضاح فى رسالته بنحوه وبين فى روايته أن ذهاب الناس إلى مصلاه (ص) كان للصلاة فيه . ثم نقل عن مالك وغيره من علماء المدينة كراهية اتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبى (ص) ما عدا قباء وحده ونقل عن سفيان الثورى ووكيع وغيرهما ممن يقتدى به عدم تتبع الاثار والصلاة فيها ثم قال .

« فعليكم بالاتباع لايمة الهدى المعروفين فقد قال بعض من مضى كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند بعض من مضى ، ومتحبب إليه بما يبغضه عليه ، ومتقرب إليه بما يبعده منه . وكل بدعة عليها زينة وبهجة » (ص ٤٣) .

فأنت ترى من هذا إثبات بعض الاخبار للتبرك ونفى بعضها له حتى أن عمر وابنه لم يتواردا على التبرك بآثاره (ص) ومنزلتهما عظيمة فى العلم والدين وصحبة أكرم المرسلين . ثم التبرك حيث أثبت فى روايات الاثبات فانما المقصود منه طلب الزيادة فى ثواب الطاعة .

والتبرك على هذا الوجه عندى معقول لان ذكرى الانبياء والصالحين ورؤية آثارهم مما يزيد الموحدين خشوعا وتعريفا بتقصيرهم فى طاعة خالقهم فتخلص بذلك عبوديتهم لله تعالى ، وحينئذ تكون الاثابة على عبادتهم أسمى ، وقبول دعائهم أرجى ، وطمعهم فى تنزل الرحمة أقوى .

وروايات نفى التبرك غير معارضة لروايات إثباته بهذا المعنى لان النافين إنما يقصدون الاحتياط على عقائد العامة أن تزيغ كما سبق فى توجيه مخاطبة عمر للحجر الاسود ، وأنه قطع الشجرة خوف الفتنة ، وأنه حذرهم أن يهلكوا بتتبع الآثار هلاك أهل الكتاب . والاحتياط من الضلال مشروع ففى الموطا والصحيحين عن عائشة أن النبى (ص) قال ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد ابراهيم قالت فقلت يارسول الله أفلا تردها على قواعد ابراهيم فقال رسول الله (ص) لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت .

والذى تفيده النقول السابقة فى مجموعها إثباتا ونفيا وتوجيها أن التبرك مشروع ولكنه مقيد بقيود (أحدها) أن يكون التبرك بفعل طاعة مشروعة كصلاة ودعاء رجاء القبول وزيادة الاجر ، لا بحمل تراب أو بخور وغيرهما من أجزاء المكان المتبرك به أو الاشياء الموضوعة فيه ، نعم ثبت عن الصحابة أنهم تبركوا بالتمسح بفضل وضوئه (ص) والتدلك بنخامته بل أن منهم من شرب دم حجامته (ص) ولكن لم يرد أنهم فعلوا نحو ذلك مع غيره (ص) من خلفائه الراشدين وأهل بيته الطاهرين . فيكون هذا الضرب من التبرك مقصوراً على ذاته الشريفة منقطعا بموته

ثم إننا إذا نظرنا للمناسبة التى فعل فيها الصحابة مع النبى (ص) هذه الاعمال علمنا أن ذلك كان لغرض شرعى .

ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا عند قدوم سفير المشركين إلى النبى (ص) لعقد معاهدة صلح الحديبية فأرادوا أن يظهروا له مكانة النبى (ص) فى قلوبهم ، وأنهم على استعداد تام للتضحية معه . ويدل على ذلك ان هذا العمل لم يتكرر منهم ، ولم يكن عادة .

ثانيها أن لا يحمل المتبرك غيره على التبرك ولا أن يدعوه إليه فلا ينصب شىء للعموم يتبركون به (ثالثها أن يتفق له المرور بمكان التبرك لا أن يقصد إليه من بعيد

ويقتحم السفر من أجله (رابعها) أن يكون من المعرفة بدينه بحيث لا تضله خطرات النفس ولا نزغات الشيطان ، لا أن يكون ضعيف الإيمان قليل المعرفة ، ولقلة اطلاعى لم أر من أفصح عن هذه الشروط ، ولكنها مقتضى العلم ووحى النصيحة وقد كان النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم يحتاطون على الاعتقاد أى احتياط حتى لا يزل أو يكدر بالاختلاط .

قال القرطبي فى تفسيره : الذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع ، ويشهد لسد الذرائع من الكتاب والسنة نصوص وظواهر نقتصر منها على ما يلى :

قال تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فنهى عن سب الآلهة الباطلة حتى لا يسب الإله الحق .

وفى الصحيحين عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه .

وفيهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ، فجعل التعرض لسب الآباء كسبهم . ولقد أصاب من قال :

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حال بواديها

آثار الشرك فى المسلمين

إن الأمة متى فقدت العالم البصير والدليل الناصح والمرشد المهتدى تراكمت على عقولها سحائب الجهالات ، وران على بصائرها قبائح العادات ، وسهل عليها الإيمان بالخيالات ، فانقادت لعالم طماع ، وجاهل خداع ، ومرشد دجال ، ودليل محتال ،

وازدادت بهم حيرتها ، واختلت سيرتها ، والتبست عليها الطرائق وانعكست لديها الحقائق ، فتتهم العقل وتقبل المحال ، وتشرد من الصواب وتأنس بالسراب ، هذا يتقدم إليها بما له أسباب خفية ، فتراه تصرفاً فى الكون ، وذلك يلقى إليها بأقوال مجملة ينزلها كل سامع على ما فى نفسه فتراه من علم الغيب . ثم تجد من تسميه عالماً يثبت قدمها فى هذا الخبال ، ويزعم لها أن الحقيقة فى هذا الخيال ، وفى مثل هذه الحالة جاء حديث الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

ولقد سادت هذه الحالة العالم الإسلامى ، فانتهوا إلى جاهلية كجاهلية العرب فى الدين لا فى اللسان والبيان ، فقد ارتقى العرب أيام جاهليتهم فى معرفة معانى الكلام والإبانة عما فى أنفسهم بالألفاظ المؤدية لأصل المعنى ، ولكن المسلمين شمل انحطاطهم هذه الناحية أيضاً ، فلم يكونوا مثل أولئك العرب فى فصاحة اللسان ووضع الأسماء على مسمياتها ، فتراهم يعتقدون فى الغوث والقطب وصاحب الكشف والتصريف معنى الألوهية ، ولكن لا يسمونهم آلهة ، ويخضعون لأوليائهم ويخشونهم كخشية الله أو أشد ، ولا يسمون ذلك عبادة ، ويفرقون بينهم وبين من سماهم القرآن مشركين بأنهم لم يعبدوا غير الله ولم يتخذوا معه إلها آخر كأولئك المشركين ، وربما مازوا أنفسهم من الجاهلية الأولى بأن وصفهم بالشرك جاء من قِبل اعتقادهم فى الجماد وغير الصالحين من العباد أو أن أحداً غير الله يماثله فى الخلق والإيجاد ، ويقولون نحن إنما نعتقد فى الصالحين الأخيار أن الله جعل لهم النفع والضر فى هذه الدار وتلك الدار ، فهم يعطون أو يمنعون وبأيديهم مفاتح غيبه وتحت قبضتهم خزائن فضله ، ينزلون الأمطار متى شاءوا ، ويعافون من أحبوا ويبتلون من أبغضوا ، ويهبون لمن أرادوا ذكوراً أو إناثاً أو يزوجونهم ذكراناً وإناثاً ويجعلون من غضبوا عليه عقيماً .

وتأمل فى حال مسلمى اليوم تجد منهم من ألهوا المخلوق وعبدوه ، وتبريهم من

اللفظ إنما هو لضرورة حكمه الشرعى وجهلهم بالمعنى اللغوى . وما مازوا به أنفسهم عن الجاهلية الأولى فراراً أيضا من حكم الشرك الذى هو ضرورى وجهل بمدلوله فى الشرع والوضع ، وقد كشفنا الغطاء على معنى الشرك وصورنا حقيقته عند العرب ومن قبلهم فى فصول مرت ، فارجع إليها تر تلك التفرقة غير مجدية عند الشارع ، ولا صحيحة فى الواقع .

إن ماوقع فيه العرب ومن قبلهم يقع فيه غيرهم بعدهم إذا ما جهلوا مثلهم أصول الدين وبالغوا فى التبرك بالصالحين فإن الله يقول : سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وعلماء الاجتماع يقولون ، التاريخ يعيد نفسه ، والمتكلمون يحكمون بأن ، ما جرى على المثل يجرى على المماثل ، فإذا كان مجموع المسلمين قد انتهوا فى الدين إلى جهالة المشركين ، فمحاولة تبرئتهم من الشرك غش وتضليل ، وجحد للشريعة وتعطيل . ألست ترى فى أوساطهم قبابا تبذل فى شيدها الاموال وتشد لزيارتها الرحال ؟ أم لست تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والاموات .

والخبير بحياة أهل عصره العالم بأصول دينه لا يتردد فى ظهور الشرك وانتشاره وتعدد مظاهره وآثاره . والعامى الفطرى لو سألته وأفهمته لوجدت عنده الخبر اليقين لإثبات أن أمثاله ــ وما أكثرهم ــ فى ضلال مبين . هذا إجمال تفصيله فيما بعد من الفصول .

وارجع البصر نحو أركان الاسلام الخمس ، التى ليس فى كونها عبادة لبس ، هل تجد المسلمين يأتون بها على وجهها أم يخصون بها الخالق جل وعلا ، إنك تجدهم يشهدون شهادة الإخلاص ثم لا يخلصون لله ، بل يفزعون لأوليائهم ويخشونهم خشية تألية ، وتراهم يصلون ولكن لا يخشعون إلا بين يدى من به يتبركون ، ويتساهلون فى إخراج الزكوات ويتشددون فى الوفاء بما ينذرون للمزارات والمقامات ، فهل تفرق مع هذا بين جاهلية عصر الوحى ، وجاهلية زمن الاستعباد والبغى .

لا فرق بينهما فى الجهل بما ينافى التوحيد ولا فى الابتلاء بالمبتدعين والدجالين

ولا فى التبرك بالآثار احتماء من الاقدار ، ولا فى التقرب من الاحجار والنفور من المرشدين الاخيار ، ولا فى عصيان من خلقهم وعبادة ما نحتوه ، ولا فى افتراق الكلمة والانقسام إلى شيع متعادية ، أما الذل والخوف والفقر فحظ زماننا منه أوفر .

إن لم نخسر أنفسنا وبقى فيها مكان للانصاف وشعور بحب السلامة اعترفنا بدائنا وبحثنا عن دوائنا . ولا داء إلا ما نزل بالعقول من الجهالة وران على القلوب من الضلالة ، فلا علم بما يصحح العقيدة ولا شعور بما يبعث على الفضيلة إلا من رحم ربك وقليل ما هم ، وعلى قلتهم لم تعرفهم العامة فتحتذيهم فى العقد والسيرة ، ومن عرفت منهم لم تعرف غير أسمائهم فاكتفت بمجرد محبتهم ، فهى لا تفتح أبصارها الا على مناظر البدعة واجتماعات التدجيل ، ولا تعرف بصائرها الا الاعتماد على البركات التى ألصقها الوهم ببعض الجمادات ، أو من يرون لهم من الناس خصوصيات ولا تعد من صالح أعمالها الذى تعده ليوم مآلها الا المبالغة فى تعظيم آباء وشيوخ وكل ما يجعل قدمها راسخة فى الشرك والرذيلة كل الرسوخ ، أما العز والامن ، أما السيادة والغنى ، أما الإباء والشمم فتلك صفات ذهب بها أمس وتوارت عن الحس لم يعرفها جيلنا حتى ينشدها ، ولم يتذوقها حتى يألم لفقدها ، بل انعكست حقائقها لديه فيما انعكس عليه من الحقائق .

ولاية وولاية

الولاية والكرامة من الالفاظ الدينية المشهورة عند العامة ، ولكن التبس عليهم المعنى الشرعى لها بالمدلول الشركى ، فاستغل ذلك الالتباس لتضليل الناس أهل الزهد فى العلم والحرص على المال من رؤساء الطرق وكل من شايعهم وخدمهم من علماء هم أضل من الجهال ولبسوا بتلك الالفاظ على النقاد والوعاظ ، فكادوا يلبسون دعوة المصلحين غير لباسها ، ويصلون الى أمنيتهم فى نقضها من أساسها ، ولكن الثقة بالله حصن لا يقوض وسنته فى علو الحق على الباطل ثابتة لا تنقض .

الولاء بالفتح القرابة والنصرة يقال بينهما ولاء ؛ وبالكسر الموالاة والمتابعة ، تقول أفعل هذه الاشياء على الولاء وتوالى عليه شهران ، والموالاة بين شخصين تكون أيضا مضادة للمعاداة .

وإذا أجدت النظر فيما جلبناه ألفيت مرجع الولاية إلى النصرة والعون في محبة وعطف . وإنما أطلنا فيما نقلنا من تفاصيل استعمالاتها ليسهل عليك فهم تصرفات القرآن فيها اثباتاً و نفيا ومدحا وذما .

لقد اثبتها تعالى بين الكفار والشياطين على معنى الذم لهم فى آيات منها فى النساء فقاتلوا أولياء الشيطان وفى الأعراف أنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون - انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون . وفى الأنفال والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، وهذا الضرب من الولاية موالاة دنيوية غير خالصة ولا نافعة فى الأخرى لقوله تعالى فى أهلها تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى — كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك - يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا .

ونفاها تعالى بين المؤمنين والكافرين ونهى عنها فى مثل آيات العقود والأنفال وبراءة والممتحنة فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة .

وأثبتها بين المؤمنين تشريعا وتشريفا فى مثل ما فى الأنفال وبراءة . فقال إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض — والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

وخص تعالى نفسه بها وأبطل ولاية غيره فى آيات بالبقرة والأنعام والأعراف وهود ويوسف والشورى . فقال(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات — قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم -- ولا تتخذوا من دونه أولياء . إن ولي الله الذى نزل الكتاب — وما لكم من دونه من أولياء ثم لا تنصرون .

واختص تعالى من خلقه طبقة سماهم أولياء وأثنى عليهم وبشرهم . فقال فى سورة يونس ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وليس بين كل هذه المواضيع تعارض بل هى تجرى على سنن من الارتباط إلى غاية من البيان . فالولاية بين العباد معناها التناصر والتعاون بما يملكون من أسباب النصر والاعانة حسب جرى العادة وذلك ممدوح فى الحق والخير ، مذموم فى الباطل والشر ممكن فى الدنيا بين الأبرار وبين الفجار . وتختص الولاية بالله إذا كانت للفاعل من وليه إذا قام به وأعانه وتولى حفظه ورعايته لأنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت والناصر للعبد الذى يهيىء له الأسباب العادية ويعينه بما هو خارج عن الأسباب ويلطف به فيما يلم به . فمن اتخذ وليا غير الله بهذا المعنى فقد اتخذ معه شريكا ولهذا قال فى سورة الرعد أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ وجعلوا لله شركاء ويشترك غير الله به فيها إذا كانت للمفعول فان العبد يوالى الله وأولياءه . فمعنى إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا إنما الولى الذى توالونه وتتولونه لقوله بعد ومن يتولى .

والأولياء الذين شرفهم الله باضافتهم إليه فى سورة يونس يصح كما قال العسكرى أن يكونوا بمعنى الفاعل لنصرهم دين الله والدعاة إليه وأن يكونوا بمعنى المفعول لأعانة الله لهم على الأخلاص فى الطاعة . وعلى التقديرين فهم من جمع إلى صحة العقيدة القيام بالفرائض والوقوف عند الحدود والتزود بالنوافل وهذا معنى وصفهم فى نفس الآية بالايمان والتقوى ووصفهم فى غيرها بالايمان مع الاسلام أو مع الاستقامة أو مع العمل الصالح أو مافى معنى ذلك، قال تعالى فى البقرة وفى النحل وفى الزمر وفى فصلت وفى الزخرف وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وفصل هذا المعنى أول سورة قد أفلح المؤمنون وحكم لاهله بقوله أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ووردت فى هؤلاء الاولياء أحاديث أشرفها كما قال ابن رجب فى جامع العلوم والحكم حديث البخارى « من

عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لاعطينه ولئن استعاذنى لاعيذنه، قال القشيرى فى باب الولاية من رسالته ، الولى له معنيان أحدهما فعيل بمعنى مفعول وهو من يتولى الله سبحانه وتعالى أمره قال الله سبحانه وهو يتولى الصالحين فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته . والثانى فعيل مبالغة من الفاعل وهو الذى يتولى عبادة الله وطاعته فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الوالى وليا ، .

ومراده بكون عبادة الولى لا يتخللها عصيان أنه إن وقع منه الذنب تاب ولم يصر عليه كما صرح به فى موضع آخر . وقد قال تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، والوصفان اللذان يجبان لاستحقاق العبد الولاية ليسا جميعاً من كسبه . وإنما الذى من كسبه هو الوصف الثانى بمعنى الفاعل ولكن متى صدق العبد فيه أنعم الله عليه بالوصف الآخر الذى بمعنى المفعول .

وإذا عرفت معنى الولى شرعا من القرآن والحديث وكلام أهل السنة والجماعة فاياك أن تعدو ذلك الحد فيه إن كنت تؤمن بكتاب الله وما صح عن نبيه (ص)

وحق الولى حقا على العباد أن يوالوه ولا يعادوه وأن يحبوه ولا يبغضوه وأن يحترموه ولا يهينوه فقد جاء عنه (ص) الحب فى الله والبغض فى الله من الايمان أخرجه أبو داود وغيره عن أبى أمامه (رض) ومن أحب أحداً احترمه وتقدم حديث البخارى فى الاولياء وشدة توعد من آذاهم وعاداهم، وعد ابن حجر الهيتمى فى الزواجر معاداة الاولياء فى الكبائر .

والولاية راجعة فى الحقيقة إلى أمر باطن لا يعلمه إلاالله فربما أدعيت الولاية . لمن ليس بولى أو ادعاها هو لنفسه أو أظهر خارقة من الخوارق لكنها سحر أو شعوذة لا أنها كرامة فيظنها من لا يفرق بين الكرامة وغيرها كرامة ويعتقد

أن صاحبها ولى فيضل ضلالا بعيداً ، هذا كلام صاحب الاعتصام (٢ : ٨) ثم من صحت ولايته فهو من أهل الجنة قطعاً ، ولكننا لا نجزم لأحد بالجنة إلا عن نص وارد فيه لحديث أم العلاء الأنصارية عند البخارى أنه لما توفى أبو السائب عثمان بن مظعون ودخل عليه النبى (ص) قالت ، رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتى عليك لقد أكرمك الله عز وجل ، فقال رسول الله (ص) وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت لا أدرى بأبى أنت وأمى ، فقال رسول الله (ص) أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنى لأرجو له الخير ، والله لا أدرى — وأنا رسول الله — ما يفعل بى ، قالت فقلت والله لا أزكى أحداً بعده أبداً ،

قال الحافظ بن كثير بعد إيراده فى تفسيره عن البخارى وأحمد ، وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم ، (٧ : ٥٧)

وإذا لم يجز لنا الجزم لأحد بالجنة مع عدم ورود النص فيه لم يجز لنا الجزم بولايته . قال القرطبى فى تفسيره ، قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبى كرامات وخوارق للعادات ، فليس ذلك دالا على ولايته ، خلافا لبعض الصوفية والرافضة .

ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولى لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمناً ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمناً لم يمكننا أن نقطع على أنه ولى لله تعالى (١ : ٢٩٧) نعم نحسن الظن بمن صلح ظاهره ونرجو له الخير .

وقد نقل الفخر الرازى فى تفسيره عن المتكلمين أن ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة (٥ : ١٤) ومحصله أن الولاية تقوم على ثلاث قواعد : إحداها الإيمان الصحيح ، وثانيتها العمل الخالص لله ، وثالثتها موافقة السنة ، فمن ظهرت عليه هذه الأشياء وتحققت فيه فهو الولى الشرعى .

أما الولى عند الناس اليوم فهو إما من انتصب للإذن بالأوراد الطرقية ، ولو كان فى جهله بدينه مساوياً لحماره ، وإما من اشتهر بالكهانة ولو تجاهر بترك الصلاة

وأعلن شرب المسكرات واما من انتمى إلى مشهور بالولاية ولو كان إباحياً لايحرم حراماً ، وحق هؤلاء الاولياء على الناس الجزم بولايتهم وعدم التوقف فى دخولهم الجنة ثم الطاعة العمياء ولو فى معصية الله ، وبذل المال لهم ولو أخل بحق زوجته وصبيته ، والثقة بهم ولو خلوا بالحريم . وبعد فهم المطلوبون فى كل شدة ولكل محتم بهم عدة ، وهم حماة للأشخاص والقرى والمدن كبيرها وصغيرها ، حاضرها وباديها فما من قرية بلغت مابلغت فى البداوة أو الحضارة إلا ولها ولى تنسب إليه ، فيقال سيدى فلان هو مولى البلد الفلانى ، ويجب عند هؤلاء الناس أن يكون علماء الدين خدمة لهؤلاء الاولياء ، مقرين لاعمالهم وأحوالهم ، غير منكرين لشىء منها ، وإلا أوذوا بضروب السباب ومستقبح الالقاب ، وسلبوا الثقة بعلمهم ، ووشى بهم إلى الحكام ، وذلك حظ الدعاة إلى السنة من مبتدعى هذه الامة .

قال أبو إسحاق الشاطبى فى الاعتصام « إن شأن البدعة فى الواقع الحرص على أن لا تزال من موضعها ، وأن تقوم على تاركها القيامة ، وتنطلق عليه ألسنة الملامة ويرمى بالتسفيه والتجهيل ، وينبز بالتبديع والتضليل ضد ما كان عليه سلف هذه الامة والمقتدى بهم من الأئمة .

والدليل على ذلك الاعتبار والنقل ، فإن أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير على أهل السنة إن كان لهم عصبة أو لصقوا بسلطان تجرى أحكامه فى الناس وتنفذ أوامره فى الاقطار ، ومن طالع سير المتقدمين وجد من ذلك مالا يحصى . وأما النقل فما ذكره السلف من أن البدعة إذا أحدثت لا تزيد إلا مضيا (٢ : ٥٧)

إن الولاية العامية التى صورناها ولاية بدعية شركية ، نهى الله عن اتخاذها بمثل قوله (ولا تتبعوا من دونه أولياء)

قال البغوى : أى لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم فى معصية الله ، وهو تفسير بما هو أخفى فى الشرك ، يشير بالاولى إلى المنع من الاعتماد عليهم فيما هو خارج عن الاسباب العادية ، وقد سئل الجلال السيوطى عن قول الناس « مالى إلا الله وأنت » هل يجوز عملا بقوله تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من

المؤمنين ، فأجاب بأن ذلك القول لا تشهد لصحته الآية ؛ لأن قوله ومن اتبعك معطوف على الكاف لا على لفظ الجلالة ، فيكون المعنى الله حسبك وحسب من اتبعك ، واستدل لعدم الجواز بما ورد أن رجلا قال النبي ﷺ ما شاء الله وشئت ، فقال له (ص) بل ماشاء الله وحده . وجواب السيوطى ذكره فى الحاوى (١: ٢٣٧)

علم العلماء الناصحون الفرق بين الولايتين الشرعية والشركية ـ فأعلنوا به ، وجهله خصومهم المغرضون ، وأخفاه من علمه منهم إيثاراً لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فشوهوا وموهوا ، ولبسوا ودلسوا ، وبدعوا وشنعوا ، ولمزوا ونبذوا ، ولقن ذلك من أعماه الغرض ، كل من فى قلبه مرض ، ثم اغتروا فهنئوا نفوسهم بالمحافظة على عقيدة أهل السنة والجماعة ، وما سنتهم إلا سنة القبوريين والطرقيين ؛ وما جماعتهم إلا جماعة المغرورين والطامعين .

ونصيحتنا لهؤلاء أن يربعوا على أنفسهم ويسألوا أهل الذكر عن حقائق دينهم ويخلصوا فى طلب الحق عسى أن يوفقوا للظفر به ولا يخدعوا فى علمائهم المرشدين فإنهم لهم من الناصحين ؛ ومن عاقبة سكوتهم وضلال أبناء دينهم مشفقون ، وأن لا تستحل أعراضهم ، فإن إذايتهم محاربة للدين .

الكرامة

كرم الشىء بضم الراء كرما بفتحتين وكرامة إذا نفس وعزفهو كريم وله علىّ كرامة أى عزازة ، وكل شىء شرف فى بابه فإنه يوصف بالكرم ، ولا يقال فى الإنسان كريم حتى تظهر منه أخلاق وأفعال محمودة .

فإذا عرفنا الكرامة فى اللغة سهل علينا أخذ المعنى الشرعى منها ، فتكون فى الشرع عبارة عما يصل من الله إلى الولى ويظهر عليه من كل نافع عزيز نفيس شريف . وقد اختلف علماء الكلام فى تحديد هذا الواصل من الله إلى الولى ، والمعروف عن الأشاعرة فى ذلك ثلاثة أقوال على طرفين وواسطة ، والطرفان لأبى إسحاق الاسفرايينى وأبى بكر الباقلانى ، والواسطة لأبى القاسم القشيرى .

فأما أبو إسحاق فيقول : إن الكرامة لاتبلغ مبلغ خرق العادة ، وإنما هى إجابة

دعوة أو موافاة ماء فى غير موقع المياه أو نحو ذلك . وأما الباقلانى ومن معه فيقولون : كل ما جاز أن يكون معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى من غير استثناء ، ومنعوا الالتباس بما لا ضرورة بنا إلى بسطه .

وأما القشيرى فيقيد إطلاق الباقلانى وموافقيه ، قال فى باب كرامات الأولياء من رسالته « ثم هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام فى أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء فى زمان عطش أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة .

وقيد النووى فى بستان العارفين الكرامة بأن لا تؤدى إلى رفع أصل من أصول الدين نقله ابن علان فى شرح رياض الصالحين (٧ : ٣٦٢) وهو كقول أبى إسحاق فى الموافقات « لا يصح أن تراعى وتعتبر إلا بشرط أن لا تخرم حكما شرعيا ولا قاعدة دينية ، فإن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكما شرعيا ليس بحق فى نفسه ، بل هو إما خيال أو وهم ، وإما من إلقاء الشيطان » (٢ : ٢٦٦) ولا نشك أن هذا القيد مراد لأصحاب الأقوال الثلاثة .

وبعد فنحن نثبت كرامات الأولياء ولا نقيد من ناحية العقل قدرة الله بنوع منها ولكننا نقيدها من طريق الشرع بغير ما أعلمنا الله أنه من خواص الألوهية حتى لا نغلو فيها غلواً ينتهى إلى الشرك والعياذ بالله ، وليست الكرامة هى دليل الولاية لالتباسها على كثير من الناس بما ليس بكرامة ، بل الولاية هى دليل الكرامة وليس للكرامة تأثير فى الأحكام الفرعية ، ولكنها كما قال أبو إسحاق فى الموافقات « تفيد لأصحابها يقينا وعلما بالله تعالى وقوة فيما هم عليه » (٤ : ٨٥)

التصرف فى الكون

التصرف فى الكون خاص بالله سبحانه ، قال تعالى (ليس لك من الأمر شىء — قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك — قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت

من الخير وما مسنى السوء - إنك لا تهدى من أحببت - وله خزائن السموات والأرض .

ومن وقف على مقاصد الكثير من عوامنا فى نسبة الأفعال إلى الأوليا. وتصرفهم فى الكون لم يشك فى أنهم يعتقدون أن الأولياء أعزاء على الله ، وقد فوض إليهم التصرف وأنابهم عنه فيه ، فما قضوه للناس وافقهم الله عليه ، بل منهم من ينتهى به الأمر إلى أن يعتقد فى الولى أنه يفعل ما يفعل بقوته لا بقوة الله ، وتجد من المخذولين من يدعى ذلك لنفسه .

علم الغيب لله وحده

فى مفردات الراغب ان ما غاب عن الحاسة وعلم الإنسان فهو غيب ، وفى منتقى الباجى « الغيب هو المعدوم وما غاب عن الناس » (١ : ٣٣٤) وفى أحكام ابن العربى « حقيقة الغيب ماغاب عن الحواس مما لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النظر » (١:٥)

وقد جاءت آيات وأحاديث فى إفراد الله وحده بعلم الغيب ، وهى كثيرة ونقتصر هنا من الآيات على ما فى الأنعام والنمل والجن ، قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو - قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله - عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ومن الأحاديث على حديثى ابن عمر عند البخارى وعائشة عند مسلم ، فالذى فى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير . ورواه أحمد بلفظ : أوتيت مفاتيح كل شىء الا الخمس ، وذكر الآية . والذى فى مسلم هو قول عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، الى أن قالت فى بيان الثالثة « ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله)

وحكى ابن الحاج فى حاشيته الاتفاق على كفر من يقول ان الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . ونقل بن حجر الهيتمى فى رسالته الاعلام بقواطع الاسلام عن الرافعى وغيره كفر من ادعى علم الغيب .

الكهانة والطيرة

الكهانة مما فيه معنى الغيب ، ومثلها فى ذلك العرافة والعيافة والطيرة والطرق والتنجيم قال فى القاموس ، كهن له كمنع ونصر وكرم كهانة بالفتح وتكهن تكهنا قضى له بالغيب فهو كاهن والجمع كهنة وكهان وحرفته الكهانة بالكسر ،

وفى المصباح ، العراف مثقل بمعنى المنجم والكاهن . وقيل العراف يخبر عن الماضى ، والكاهن يخبر عن الماضى والمستقبل ، وفى مفردات الراغب ، الكاهن هو الذى يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ، والعراف الذى يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك ، .

وفى معالم السنن للخطابى ، الكاهن هو الذى يدعى مطالعة علم الغيب ، ويخبر الناس عن الكوائن ، وكان فى العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور فمنهم من كان يزعم أن له رئياً من الجن ، وتابعة تلقى إليه الأخبار ، ومنهم من كان يدعى أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه ، وكان منهم من يسمى عرافا ، وهو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها كالشىء يسرق فيعرف المظنون به السرقة وتتهم المرأة بالزنية فيعرف من صاحبها ونحو ذلك من الأمور . ومنهم من يسمى المنجم كاهنا ، (٤ : ٢٢٩)

والعيافة الزجر قال فى القاموس ، وعفت الطير أعافها عيافة . زجرتها وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتسعد أو تتشاءم والعائف المتكهن بالطير أو غيرها ، ونحوه فى الصحاح لكنه قال وأصواتها مكان أنوائها .

والطيرة التشاؤم . يقال تطيرت من الشىء وبالشىء إذا تشاءمت به كما فى الصحاح . وقال القرافى فى فروقه التطير هو الظن السىء الكائن فى القلب والطيرة الفعل المرتب على هذا الظن من فرار أو غيره (٤ : ٢٢٨) وقال الحافظ فى الفتح أصل التطير أنهم كانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فان رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها وليس فى شىء من ذلك ما يقتضى ما اعتقدوه

وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له إذ لا نطق للطير ولا تميز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك. ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك وبقيت من ذلك بقايا فى كثير من المسلمين.

والفال عكس الطيرة وقد يلتبس بها فيلحق بها فأصل الفال المستحسن شرعا أن تسمع كلمة توافق ما أنت بصدده وتبعثك على المضى فيه قال فى الفروق. وأما الفال الحرام فقال الطرطوشى فى تعليقه أن أخذ الفال من المصحف وضرب الرمل والقرعة والضرب بالشعير وجميع هـذا النوع حرام لأنه من باب الاستقسام بالأزلام والأزلام أعواد كانت فى الجاهلية مكتوب على أحدها أفعل وعلى الآخر لا تفعل وعلى الآخر غفل، فيخرج أحدها فان وجد عليه أفعل أقدم على حاجته التى يقصدها، أو لا تفعل أعرض عنها واعتقد أنها ذميمة أو خرج المكتوب عليه غفل أعاد الضرب فهو يطلب قسمه من الغيب بتلك الأعواد فهو استقسام أى طلب القسم الجيد يتبعه والردىء يتركه. وكذلك من أخذ الفال من المصحف أو غيره إنما يعتقد هذا المقصد إن خرج جيداً اتبعه أو رديا اجتنبه فهو عين الاستقسام بالأزلام الذى ورد القرآن بتحريمه فيحرم. وما رأيته حكى فى ذلك خلافا.

عن أبى هريرة (رض) أنه (ص) قال من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد . أخرجه أحمد ومسلم ورواه البزار عن جابر بن عبدالله مرفوعا.

وعن عائشة قالت سأل رسول الله (ص) ناس عن الكهان فقال ليس بشىء فقالوا يارسول الله انهم يحدثوننا أحيانا بشىء فيكون حقا فقال رسول الله تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة أخرجه الشيخان وقوله يقرها بوزن يردها من القر وهو ترديد الكلام فى أذن المخاطب حتى يفهم.

وعن ابن مسعود (رض) أنه (ص) قال الطيرة شرك ومامنا إلا تطير ولكن الله يذهبه بالتوكل أخرجه أبو داود والترمذى وصححه هو وابن حبان وبين الحافظ

فى الفتح أن قوله (وما منا) من كلام ابن مسعود .

وعن رويفع بن ثابت (رض) أنه (ص) قال من ردته الطيرة عن شيء فقد قارف الشرك رواه البزار عن شيخه ابراهيم غير منسوب وفيه سعيدبن أسد بن موسى روى عنه أبو زرعة الرازى ولم يضعفه أحد وبقية رجاله ثقات قاله فى مجمع الزوائد.

وعن أبى هريرة (رض) أنه (ص) قال لا طيرة وخيرها الفال قالوا وما الفال قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم أخرجه الشيخان . وفى فتح المجيد عن الحليمى « وإنما كان (ص) يعجبه الفال لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق . والتفاؤل حسن ظن به . والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

وعن عمران بن حصين أنه (ص) قال : ليس من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له رواه الطبرانى وفيه اسحق بن الربيع العطار وثقه أبو حاتم .

وعن ابن عباس (رض) أنه (ص) قال من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد مازاد رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد رجاله ثقات وصححه النووى فى رياض الصالحين قال ابن رسلان فى شرح السنن « والمنهى عنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الحوادث والكوائن التى لم تقع وستقع فى مستقبل الزمان ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها واجتماعها وافتراقها وهذا تعاطى لعلم استأثر الله بعلمه . . . وأما علم النجوم الذى يعرف به الزوال وجهة القبلة وكم مضى وكم بقى فغير داخل فيما نهى عنه ، ومن المنهى عنه التحدث بمجىء المطر ووقوع الثلج وهبوب الرياح وتغير الاسعار ، نقله الشوكانى فى نيل الاوطار .

وقال (ص) العيافة والطيرة والطرق من الجبت رواه أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه وحسنه فى رياض الصالحين، والجبت كل ما عبد من دون الله ويطلق على الساحر والكاهن قاله الراغب فى مفرداته والجوهرى فى صحاحه .

ومما قاله الشعراء فى هذا الباب قول لبيد :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

التميمة

هى ما يعلق على الإنسان لدفع الآفات عنه ، وأكثر ما تعلق على الرضيع ، ويقال فيها عوذة بالضم ومعاذة بالفتح وتعويذة ، تقول تعلق عوذ ومعاذة وتعويذة كما تقول تعلق تميمة وفى القاموس « التميمة خرزة رقطاء تنظم فى العنق »

وتعليق التمائم من فعل الجاهلية يعتقدون أنه يدفع عنهم الآفات . قال أبو ذئيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولما فى هذا التعليق من اللجإ إلى غير الله فى جلب الخير ودفع الضر بما لم يجعله الله سبباً لذلك جعله الإسلام من الشرك ، وفيه حديث أبى هريرة : من تعلق شيئا وكل إليه ، وذلك كاف للمؤمن فى النفور من هذه التمائم ، ووردت فى الموضوع أحاديث نقتصر على بعض ما جاء منها فى مجمع الزوائد .

فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من يعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن يعلق ودعة فلا ودع الله له . رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ، ورجالهم ثقات ، وذكر فى فتح المجيد أن الحاكم رواه أيضاً وصححه وأقره الذهبى (ص ٨٦)

وودع فعل ماض بمعنى ترك ، والكثير فى استعماله أن يجىء مضارعا وأمراً ، والودعة خرزة بيضاء يلفظها البحر .

وعنه أيضاً أن رهطا أقبلوا إلى رسول الله (ص) فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقيل يا رسول الله بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ قال إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال : من علق تميمة فقد أشرك . رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات .

وعن عيسى قال : دخلنا على أبى معبد نعوده ، فقلنا ألا تعلق شيئا ؟ فقال الموت أقرب من ذلك ، إنى سمعت رسول الله (ص) يقول : من علق شيئا وكل إليه ، رواه الطبرانى ، وفى إسناده محمد بن أبى ليلى وهو سيىء الحفظ وبقية رجاله ثقات ، قلت : يقويه حديث أبى هريرة عند النسائى ، وقد مر فى قريبا .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله (ص) أبصر على عضد رجل حلقة - أراه قال من صفر - قال ويحك ما هذه ؟ قال من الواهنة ، قال أما انها لا تزيدك إلا وهنا ، انبذها عنك فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً ، رواه أحمد والطبرانى وفيه مبارك بن فضالة وهو ثقة وفيه ضعف .

والصفر بضم فسكون النحاس الأصفر ، والواهنة الضعف أو ريح تأخذ فى المنكبين أو فى العضد . وفى فتح المجيد أن حديث عمران أخرجه أيضا بنحوه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد وأقره الذهبى .

وما زال الناس بعد هذا التهديد ممن هو بالمؤمنين رءوف رحيم ينظمون الودعات للصبيان تعلق بأعناقهم إلى غير ذلك من التمائم الجاهلية ، ومنهم من يكتب بعض آيات قرآنية ويعلقها ، وهذا العمل فيه خلاف .

وقال القاضى أبو بكر فى شرح الترمذى : تعليق القرآن ليس من طريق السنة ، وإنما السنة فيه التلاوة دون التعليق ،

وهذا هو المعروف من فعله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه ، فقد ورد فى صحيح السنة ألفاظ الرقية .

المحبة

محبة الله من أسباب انشراح الصدر ، ومحبة سواه مما يعذب القلب وينكد العيش قال فى زاد المعاد ، هما محبتان ، محبة هى جنة الدنيا وسرور النفس ولذة القلب ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها بل حياتها وقرة عينها ، وهى محبة الله وحده بكل القلب ، وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه ، ومحبة هى عذاب الروح وغم النفس وسجن القلب وضيق الصدر ، وهى سبب الألم والنكد والعناء ، وهى محبة ما سواه سبحانه .

وقال فى الفتح ، محبة الله على قسمين : فرض وندب ، فالفرض المحبة التى تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضى بما يقدره ، فمن وقع فى معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره فى محبة الله حيث قدم هوى نفسه ،

والتقصير تارة يكون مع الاسترسال فى المباحات والاستكثار منها ، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع فى الرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع ، وهذا الثانى يسرع إلى الإقلاع مع الندم ، وإلى الثانى يشير حديث لا يزنى الزانى وهو مؤمن ، والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع فى الشبهات ، والمتصف عموما بذلك نادر .

وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ، ويزاد أن لا يتلقى شيئا من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ، ولا يسلك إلا طريقته ويرضى بما شرعه ، حتى لا يجد فى نفسه حرجا مما قضاه ، ويتخلق بأخلاقه فى الجود والإيثار ، والحلم والتواضع وغيرها .

وقال أيضاً فى الباعث على هذه المحبة وعلامة تحققها ، من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله آكد عليه من حق أبيه وأمه ، وولده وزوجه وجميع الناس ، لأن الهدى من الضلال ، والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله ، ومن علامات محبته نصر دينه بالقول والفعل ، والذب عن شريعته والتخلق بأخلاقه ،

ولا تنافى بين تخصيص ابن القيم المحبة المحمودة بالله وتعميم الحافظ لها وتعديتها إلى النبي (ص) فإن محبة غير الله إما أن تكون فى الله أو مع الله ، فالمحبة فى الله أن تحب من يحبه الله ، والله يحب المحسنين والمتقين والتوابين والمتطهرين ، وإذن تكون محبة غير الله من معنى محبة الله مقوية لها غير متنافية معها ، والمحبة مع الله أن يتعلق قلبك بسواه فتغفل عن الله وتتوجه إلى غيره بالرغبة والرهبة ، فتكون محبتك هذه مغنية عن محبة الله منافية لها ، فالمحبة فى الله محمودة متعدية إلى كل داع إلى الله من الأنبياء المرسلين والأولياء الصالحين والعلماء العاملين ، وهذه الحالة هى التى فى كلام الحافظ ، والمحبة مع الله ذميمة حاملة لكل ما فى الشرك من مساوىء وأضرار .

وقد جاء فى الكتاب والسنة عطف الرسول على الله فى المحبة ، قال تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى

سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار ،

ومعنى محبة المرء لله أو فى الله أن لا تحبه لطمع فى الدنيا ، كما ذكره فى طبقات الحنابلة عن أحمد ، بل تحبه لما عليه من الهدى والاستقامة ، وفى الدر المنثور من رواية ابن أبى حاتم وأبى نعيم فى الحلية والحاكم عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن يحب على شىء من الجور ويبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض فى الله ، قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)

قال الحافظ فى الفتح ، وقد اختلف فى سبب نزول الآية ، فأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : كان قوم يزعمون أنهم يحبون الله ، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل .

وقد أرشدت هاته الآية إلى آية الصدق فى دعوى حب العبد ربه ، وأثبتت آية المائدة لهؤلاء المحبين أربع صفات، فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم)

فقوله أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، معناه الإخبار عنهم بالسهولة والتواضع فى رحمة وعطف مع إخوانهم فى الدين ، وبعزة النفس وشرف القوة مع خصومهم فى الدين . وعن هاتين الصفتين عبر فى سورة الفتح بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقوله يجاهدون فى سبيل الله إخبار عنهم ببذل نفوسهم وأموالهم فى نصرة الدين فى مواطن الحرب بالسيف وفى مواضع السلم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقوله ولا يخافون لومة لائم إخبار عن عدم مبالاتهم بمن يغضبون من كلمة فيها رضى الرب .

ومجموع ما أفادته آيتا آل عمران والمائدة خمس صفات هي الدلائل على صدق المحبة لله، وهي اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والتراحم مع الإخوان في الدين والشدة على الأعداء فيه والقيام بكل ما يؤيد الدين وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاة للناس .

تلك لوازم المحبة الشرعية وخلافها المحبة الشركية ، وهي كل محبة تغر في الدين وتبعث على الاكتفاء بها دون الجد في الصالحات وتحرى المشروع منها ، ولا تثمر ربط القلوب وصلتها بعضها ببعض إذا اتحدت على الشهادتين ، ولا توجب النفور من كل من يحاول هدم تعاليم الاسلام ، ولا تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تعود صاحبها على استعذاب العذاب في خدمة المبدأ الحق المجمل في الشهادتين . وهذه المحبة الشركية هي التي ردها الله على مشركي قريش وضُلال اليهود والنصارى بآية آل عمران المتقدمة ، وبقوله في المائدة (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلمَ يعذبكم بذنوبكم ؟

ومن كلام الحسن البصري « ابن آدم لا يغرنك أن تقول المرء مع من أحب ، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم ، وأن اليهود والنصارى ليحبون أنبياءهم ولا والله مايحشرون معهم ولا يدخلون في زمرتهم ، وإنهم لحصب جهنم هم لها واردون » نقله ابن الجوزي .

وقد أشارت هذه الآية إلى فائدة المحبة المشروعة وأنها النجاة من العذاب ، وأفاد حديث الصحيحين عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : المرء مع من أحب فائدة أخرى ، وهي أن من أنجته محبته ألحقته بحبيبه في الدرجة وإن كان دونه في العمل حكى في كشف الخفاء عن البيهقي أن رجلا من أهل بغداد سأل أبا عثمان الواعظ متى يكون الرجل صادقا في حب مولاه ، فقال « إذا خلا من خلافه كان صادقا في حبه » فوضع الرجل التراب على رأسه وصاح وقال « كيف أدعى حبه ولم أخل طرفة عين من خلافه » فبكى أبو عثمان وأهل المجلس ، وصار أبو عثمان يقول في بكائه « صادق في حبه مقصر في حقه » .

وليس معنى هاته الحكاية أن الرجل كان متكلا على المحبة معرضا عن العمل ،

وإنما معناها أنه كان مستقلا لعمله مستكثراً لذنبه ، ومما أورده فى مدارج السالكين من عبارات العلماء عن المحبة قولهم « استكثار القليل من جنايتك واستقلال الكثير من طاعتك » فلا تظن من هذه الحكاية إسقاط العمل اكتفاء بالمحبة ، فقد نقل فى كشف الخفاء عن بعض العلماء بعد ما أورد حديث المرء مع من أحب ، ورواياته أنه « مشروط بشرط وعنى صلى الله عليه وسلم أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم » ولقد صدق القائل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه　　هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته　　إن المحب لمن يحب مطيع

الدعاء

فسروا الدعاء بالسؤال والطلب والرغبة ، فى المصباح « دعوت الله ادعوه دعاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله » وفى المفردات « دعوته إذا سألته وإذا استغثته » وفى الفتح عن الطيبى: الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له ، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للبارى وإظهار الافتقار إليه (١١ : ٧٩)

وللدعاء أخوات فى المادة ومعان فى الاستعمال مرجعها إلى السؤال فى ضراعة والرغبة فى استكانة ، وعن هذا المعنى عبر فى تفسير المنار بقوله « وحقيقة الدعاء هى شعور القلب بالحاجة إلى عناية الله تعالى فيما يطلب وصدق التوجه إليه فيما يرغب » (٢ : ١٠) فإن ذلك الشعور الباطنى يوجب الضراعة ويثمر صدق التوجه بالسؤال .

والدعاء بهذا المعنى يصدق بالاستعاذة والاستعانة والاستغاثة وغيرهن مما فيه معنى الطلب ، لأنها طلب العوذ والعون والغوث ، ويتضمن الدعاء وجود المدعو وغناه وسمعه وجوده ، ورحمته وقدرته ، إذ لا يدعى المعدوم ولا الفقير ولا الأصم ولا البخيل ولا القاسى ولا العاجز .

فإذا طلبت العوذ أو العون أو أمراً آخر من المخلوق القادر عليه عادة لم يكن طلبك عبادة فلم يختص بالله ولم تكن به مشركا . وكذلك إذا نسبت شيئا من ذلك لغير الله لكونه سببا عاديا . فتقول استعذت بالحاكم من الظالم ، واستغثت بالجيران على اللصوص . قال الله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة — وتعاونوا على البر والتقوى — فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه — وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر)

وإذا كان المطلوب لا يقدر عليه إلا من له قوة غيبية ، وهو فوق الأسباب العادية ، كان الطلب عبادة تختص بالله تعالى ، ويكون طلب غيره حينئذ شركا بالله ، قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى - قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين - إذ تستغيثون ربكم - وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون)

وجاءت أحاديث فى الحث على الدعاء وأنه من العبادة :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان .

وعنه أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : من لم يسأل الله غضب الله عليه . أخرجه فى الأدب المفرد بهذا اللفظ ، ونسبه فى تحفة الذاكرين للترمذى والحاكم . زاد فى الفتح أحمد وابن ماجه والبزار والحاكم .

وعن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء مخ العبادة . أخرجه الترمذى .

وعن النعمان بن بشير أنه صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين .

وإذا كان الدعاء عبادة وجب أن يختص بالله وأن يحترز فيه من الوقوع فى الشرك أو فيما هو ذريعة إليه ، ولهذا نصح العلماء للداعين أن يدعو بالمأثور ، ففى شرح ابن علان للأذكار النووية .

عن عياض أنه قال : أذن الله فى دعائه وعلم الدعاء فى كتابه لخليقته ، وعلم النبى صلى الله عليه وسلم الدعاء لأمته واجتمع فيها ثلاثة أشياء : العلم بالتوحيد والعلم باللغة والنصيحة للأمة ، فلا ينبغى لأحد أن يعدل عن دعائه (ص) وقد احتال الشيطان للناس من هذا المقام فقيض لهم قوم سوء يخترعون لهم أدعية يشتغلون بها عن الاقتداء بالنبى (ص) وأشد ما فى الحال أنهم ينسبونها إلى الانبياء والصالحين ، فيقولون دعاء نوح دعاء يونس دعاء أبى بكر الصـــديق ، فاتقوا الله فى أنفسكم لا تشتغلوا من الحديث إلا بالصحيح .

والدعاء له ثلاثة أحوال : إما أن تدعو الله لنفسك ، وإما أن تدعو لغيرك ، وإما أن يدعو غيرك لك . فن أمثلة الأول قوله تعالى (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

وقال أيضا (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)

وقال أيضا (رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)

وفى مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى .

وفى سنن أبى داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

وفى مسلم أنه (ص) قال : اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر .

وأما دعاء غيرك لك فهو جائز إذا سأل لك الله ، سواء طلبت منه الدعاء أم لم تطلبه . فأما دعاؤه لك من غير طلب فقد وردت به الآيات والأحاديث .

قال تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان)

وقال أيضا (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)

وحكى عن إبراهيم (رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)
وحكى عن نوح (رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات)
وفى صحيح مسلم عن أبى الدرداء أنه سمع رسول الله (ص) يقول : ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل .

وأما الدعاء لآخر بطلب منه فقد كان الصحابة يسألون الدعاء من النبى (ص) ويأتونه بأبنائهم يحنكهم ويدعو لهم . وعن عمر بن الخطاب أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له وقال : لا تنسنا يا أخى من دعائك . أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح ، وفيه دلالة على أن سائل الدعاء قد يكون أفضل من المسئول منه ، وينبغى طلبا للسلامة أن لا ينصب المطلوب منه نفسه للدعاء وأن لا يعتقد أنه أفضل من الطالب .

وقد وجد فى عصرنا من الطرقيين من ينتصب للدعاء ويصرح بكونه واسطة بين الله وخلقه فى جلب المحبوب ودفع المكروه ، فإذا رضى عن أحد ضمن له ما يشتهى من حاجات من الدنيا ونعيم الآخرة ، وإذا غضب عن آخر توعده بحلول النقمة ، ورضاه وغضبه تابعان لمطامعه فيما فى أيدى الناس . ورأينا من الجهال المعتقدين فى لصوص الدين ، هؤلاء من يبذل فوق طاقته طلبا لرضاهم عنه وفوزه بدعوة منهم له ويشترى ما ينتسب إليهم من شمع وبخور مزايدة بأرفع الأثمان ليقوم ذلك الشىء المشترى مقام دعوة صاحبه ، فى الانتصاب للدعاء وسؤاله ذريعة إلى الشرك والعياذ بالله .

أما دعاء غير الله فهو شرك صريح وكفر قبيح ، وله نوعان : أحدهما دعاء غير الله مع الله ، كالذى يقول يا ربى وشيخى ، ياربى وجدى . يا ألله وناسه

وإطلاق الشرك على هذا النوع واضح ، لأن الداعى عطف غير الله على الله بالواو ثابتة أو محذوفة ، وهى تقتضى مشاركة ما بعدها لما قبلها فى الحكم ، والحكم المشترك فيه هنا هو عبادة الدعاء .

النوع الثانى دعاء غير الله من دون الله كالذى يقول . يا رجال الله ، يا ديوان

الصالحين . وإطلاق الشرك على هذا النوع ، باعتبار أن الداعي وإن اقتصر على المخلوق في اللفظ لم يذكر الله ولم يبرأ منه في العقد ، فكأن الله في كلامه مضمر . ويصح في النوع الأول إطلاق أنه دعاء غير الله من دون الله أيضاً لأن الداعي لما أشرك بالله في دعائه لم يكن داعيا على الوجه المشروع فكأنه لم يذكر الله لفظاً لأن المعدوم شرعا كالمعدوم حساً . والمعدوم هنا هو ذكر الله مشركا بسواه .

كان هذا النوع معهوداً عند العرب في جاهليتهم فعالجهم الكتاب العزيز لبصرفهم عنه تارة بتوجيههم إلى سؤال الله ، وأخرى بتعجيز المسئولين من دون الله ، وأحيانا بتذكيرهم بما كمن في نفوسهم من توحيد الله ، وظهور ذلك في ألسنتهم عند اشتداد الخطب ، وغلبة اليأس ، وتارات بالأخبار عن تعاديهم عند البعث مع أوليائهم الذين يدعونهم اليوم . أتاهم الكتاب من هذه الجهات الاربع ليقتلع من نفوسهم جذور الشرك .

فن الآيات في الجهة الأولى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني — ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها — ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير .

ومنها في الجهة الثانية (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله — والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون — قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا — يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز)

ومنها في الجهة الثالثة (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون

ما تشركون – هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين – وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه – فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)

ومنها فى الجهة الرابعة (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب – وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين – الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين)

أما الأحاديث فنقتصر منها على حديث ابن عباس (رض) قال كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال ياغلام إنى أعلمك كلمات : (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام وجفت الصحف ، أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ورواه غيره بروايات فيها زيادات .

وتأمل تعجيز النبى ﷺ لجميع الأمة على اجتماعها عن إسداء الخير أو الايذاء بالشر من غير أن يستثنى ملكا مقربا أو نبياً مرسلا أو ولياً صالحا أو شجرة عتيقة أو صخرة ضخمة ، وهذا التعميم فى التعجيز هو ما تنادى به الآيات السابقة وغيرها ، وصرح بأن خيار خلقه الذين يبتغون التقرب منه ويرجونه ويخافونه لا يملكون كشف الضر عن أحد ولا تحويله .

ولقد فشا فى المسلمين دعاء غير الله على شدة إنكار كتابهم له وتحذير نبيهم منه حتى صار الجهلة ومن قرب منهم يؤثرونه على دعاء الله وحده ، والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم ، واستيعابها عمل معجز .

وهذه الحكايات تدل على أن معتقدها أحط فكراً وأقبح جهلا وأبعد كفراً من مشركى العرب الذين يخلصون الدعاء لله فى حال الشدة واضطراب الموج ، كما حكى الله عنهم فى كتابه .

الوسيلة

فى القاموس الوسيلة هى المنزلة عند الملك والدرجة والقربة ، وفى الصحاح والمصباح هى مايتقرب به إلى الشىء ، وفى المفردات هى التوصل إلى الشىء برغبة .

واستبان من بيان اللغويين للوسيلة أنها تتضمن ثلاثة أشياء : القربة والرغبة والتوصل ، فهى على هذا قربة موصلة لأمر مرغوب فيه ، وعلى هذا يبنى المعنى الشرعى فى مستعمل الكتاب والسنة ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) وقال أيضا (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ؟)

وفى البخارى عن جابر بن عبد الله أنه ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة .

١ — أما الوسيلة فى الآية الأولى فقد حكى فى الدر المنثور عن مفسرى الصحابة والتابعين فيها أربع عبارات ، عبارة حذيفة وغير واحد أنها القربة ، وعبارة قتادة أنها الطاعة لله والعمل بما يرضيه ، وعبارة أبى وائل أنها الايمان ، وعبارة ابن عباس أنها الحاجة .

والعبارات متواردة على معنى واحد ، فطاعة الله وعمل ما يرضيه قربة والايمان عند السلف عقد وقول وعمل فآل إلى الطاعة ، والحاجة من الاحتياج والافتقار ، إن كان لله فهو من الايمان المثمر للطاعة . وقال الراغب بعد هذه الآية ، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحرى مكارم الشريعة وهى كالقربة ، فرجعت الوسيلة إلى أنها القربة والطاعة ، وحكى ابن كثير اتفاق المفسرين على هذا المعنى .

٢ ـ وأما الوسيلة فى الآية الثانية ففسرها البغوى بالقربة وبالدرجة العليا . وليس بين اللفظين تضارب ، لأن الدرجة العليا ثمرة الطاعة والقربة ، وفسرها رسول الله ﷺ بالقرب ، وهو بمعنى الدرجة العليا ، فقد روى الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه (ص) قال « سلوا الله لى الوسيلة » قالوا وما الوسيلة ؟ قال « القرب من الله » ، ثم قرأ : يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » ذكره فى الدر المنثور .

٣ ـ وأما الوسيلة فى حديث جابر فقد فسرتها الأحاديث بأنها أعلى درجة فى الجنة ، وذلك معنى القرب فى حديث أبى هريرة . روى مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة .

وإذا تأملت معنى الوسيلة فى الآيتين والحديث وجدته متقارباً متلازما ، أصله القربة والطاعة التى ينشأ عنها القرب من الله فى دار كرامته ، وإذا استعنا بالمعنى اللغوى لتحديد المعنى الشرعى كان معناها فى الشرع قربة مشروعة توصل إلى مرغوب فيه ، والتوسل هو التقرب إلى الله بتلك القربة ، وتوسل الداعى هو طلبه المبنى على تلك القربة ، وليس فى الشرع مطلوب ومدعو إلا الله ، وليس فيه من قربة إلا ما شرعه فى الكتاب والسنة .

قال ابن أبى زيد فى رسالته « ولا يمكن قبول الايمان إلا بالعمل ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة ، والنية القصد والاخلاص » .

والتوسل إما بما يناسب المطلوب عقلا وأذن فيه شرعا وإما بغير ذلك . وتفصيله أن المتوسل إما أن يتوسل بما لله من صفات وأسماء ، وإما بما له من اعتقاد صحيح ، وإما بما له من عمل صالح ، وإما بما لغيره من دعاء أو جاه ، وإما بطاعة تعمه وغيره ، فتلك ستة أنواع :

النوع الأول : التوسل بصفات الله ، وهو مشروع لقوله تعالى « ولله الأسماء

الحسنى فادعوه بها ، ولما رواه الترمذى وحسنه عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ سمع رجلا يقول : ياذا الجلال والاكرام فقال « قد استجيب لك فسل » وله أمثلة :

منها ما أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربع أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم عن أنس أنه ﷺ سمع رجلا يدعو « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والاكرام يا حى يا قيوم ، فقال ﷺ « لقد سأل الله باسمه الأعظم » .

ومنها ما رواه مسلم عن عائشة عن النبى (ص) « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » فإن إضافة لفظ الرب إلى تلك المخلوقات العظيمة مشعر بعظيم قدرته وكمال حكمته .

ومنها الأبيات المشهورة المنسوبة لابن القاسم السهيلى ومطلعها :

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع

النوع الثانى التوسل بالايمان الصحيح الصادق ، وهو مشروع لما فيه من تقوية التوحيد ، وله أمثلة :

منها ما حكاه الله عن أولى الألباب (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار)

وما رواه الترمذى وحسنه بل صححه : كما فى مدارج السالكين (١ : ١٣) وبقية أصحاب السنن الأربع ، وصححه ابن حبان والحاكم عن بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو ويقول « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فقال : والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

ومنها قول تميم بن المعز بن باديس الأمير الصنهاجى المالكى :

فكرت فى نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص

فدعوت ربى إن خير وسيلتى　　يوم المعاد شهادة الاخلاص

النوع الثالث : توسل الداعى بطاعته وصالح عمله ، وهو مشروع لما فيه من تغذية الخشوع المناسب للموضوع ، وله أمثلة :

منها حديث الصخرة فى الصحيحين أنه ﷺ قال : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، ثم ذكر برور الأول بأبويه وانفراج الصخرة قليلا لدعائه ، وعفة الثانى عمن أمكنته من نفسها بعد شوق طويل وانفراج الصخرة له أيضا ، ومبالغة الثالث فى حفظ الأمانة وتمام انفراج الصخره ، وأنهم كلهم قالوا فى أدعيتهم : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

ومنها تقديم الصلاة على النبى ﷺ قبل الدعاء لما رواه أبو داوود الترمذى وصححه أن النبى (ص) رأى رجلا يصلى ويدعوا ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال عجل هذا ثم دعاه ، فقال إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على النبي وليدع بعد بما شاء .

ومنها قول محمد بن عبد الله العبدرى المالكى :

توسلت يا ربى بأنى مؤمن　　وما قلت إنى سامع ومطيع

أيصلى بحر النارعاص موحد　　وأنت كريم والرسول شفيع

وهذه الأنواع الثلاثة لتقاربها قد تجتمع أو بعضها فى الصيغة الواحدة .

النوع الرابع توسل المرء بدعاء غيره وهو على وجهين أحدهما أن تكتفى عن دعائك بدعاء من سألته الدعاء وهذا تقدم فى فصل الدعاء وأنه مأذون فيه مالم يكن ذريعة إلى منهى عنه كسؤال الدعاء من الميت والغائب لما فيه من مظنة الاعتقاد بعلم الغيب .

الوجه الثانى أن تسأل الدعاء من الحى الحاضر فيدعو لك .

وتتوجه أنت إلى الله داعياً متوسلا بدعائه . وهو مشروع لحديث الأعمى عند أحمد ، والنسائى ، والترمذى وصححه . وهو أن رجلا ضريراً جاء إلى النبى ﷺ يسأله الدعاء ليرد الله عليه بصره فخيره بين الصبر ودعائه له فأصر على اختيار دعاء الرسول (ص) . فأمره بالوضوء ، وصلاة ركعتين ثم الدعاء بهذا اللفظ اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى اللهم فشفعه فى .

والتوجه بالنبى معناه التوجه بدعائه ، دل على هذا المحذوف إختيار الأعمى لدعاء الرسول بعد تخييره له بينه وبين الصبر ، وأمره للأعمى بالدعاء بعد دعائه (ص) نظير ما أخرجه مسلم وغيره من قوله (ص) لمن سأله مرافقته فى الجنة أعنى على نفسك بكثرة السجود فنصح لهما بعبادتى الصلاة والدعاء لمناسبتهما المطلوب .

ونظير حديث الأعمى ما رواه البخارى فى صحيحه من استسقاء عمر بالعباس وقوله . اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ففيه إثبات التوسل بالرسول فى حياته وبأهل الفضل ولا سيما ذوو قرابته بعد موته . والمقصود التوسل بدعائهم إذا كانوا معنا فى عالمنا ، أما من كان فى العالم الغيبى فكل شىء منه غائب علينا فلا نعلم هل دعا لنا ، ولم يرد الشرع بدعائهم لنا والعباس حاضر وقع منه الدعاء وأنه قال كما فى الفتح ، اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة . وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث (٢ : ٣٩٨)

النوع الخامس : التوسل بطاعة تعم المتوسل وغيره ، ومن أمثلته ما فى كبير الطبرانى من طريق فضالة بن جبير المجمع على ضعفه عن أبى أمامة مرفوعا : أسألك بنور وجهك الذى أشرقت له السماوات والأرض وبكل حق هولك وبحق السائلين عليك أن تقيلنى فى هذه الغداة وفى هذه العشية وأن تجيرنى من النار بقدرتك .

ومنها ما رواه أحمد وابن ماجه عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى (ص) أنه علم الخارج إلى الصلاة أن يقول فى دعائه : وأسألك بحق السائلين

عليك وبحق ممشاى هذا ، فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ومنها ما رواه محمد بن عون عن جابر فى دعاء الأذان مرفوعاً : اللهم إنى أسألك بحق هذه الدعوة التامة ، وعطية العوفى ضعفوه ، وأطال السهسوانى فى صيانة الانسان القول فى تعليل حديثه هذا . ومحمد بن عون فيه مقال ، فلم تسلم الأحاديث الثلاثة من الطعن .

وتأول التقى ابن تيمية حديث عطية على فرض صحته بأن حق السائلين لله الإجابة ، وحق العابدين له الإثابة ، فسؤاله بهذا الحق له بأفعاله كالاستعاذة بمعافاته فى حديث : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . أخرجه مسلم عن عائشة وهذا الحق أوجبه على نفسه تفضلا منه ورحمة فقال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

النوع السادس : توسل المرء بحق المخلوق وجاهه . وقد وردت فيه آثار .

وللعلماء فى الكلام على أمثال هذه الآثار جهتان : جهة السند والرواية ، وجهة المعنى والدراية . فأما الرواية فإنه لم يخرج هذه الآثار من يلتزمون الصحة فيما يروون . وأما الدراية فإن معنى هذه الآثار أن للعبد حق على الله وهو من سوء الأدب مع الله ، والدعاء من أفضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع .

والذى نقوله إن هذا الضرب من التوسل إن لم يكن شركا فهو ذريعة إليه ، وينبغى أن يحذر منه الجاهل المتعرض لمزالق الشرك الخفيف إلى دواعى الوثنية خشية أن يعتقد أن لأحد حقاً على الله فى جلب النفع ودفع الضر ، وأن الصالحين مع الله تعالى كالوزراء مع الملوك يحملونهم على فعل ما لم يكونوا مريدين لفعله ، ومن اعتقد هذا فقد وقع فى صريح الشرك وجعل إرادة الله حادثة تتأثر بإرادة غيره وعلمه حادثاً يتغير لعلم المخلوق .

وقد غلب الجهل بالدين وضعفت الثقة برب العالمين ، واعتمد الناس من سموهم أولياء صالحين ، وعولوا على التوسل بهم فى قضاء مطالبهم ، وغالوا فى اعتباره وتشددوا فى التمسك به ، وبادروا إلى الإنكار على من أراد بيان المشروع منه لهم، ولم تزل مسألة الوسيلة حديث المجالس منذ أزمنة طويلة ، فضبطناها ضبطا يقربها من متناول العامة ، عسى أن يخفضوا من غلوائهم ويرجعوا إلى السنن المشروع فى توسلهم ويهتدوا إلى الحق فى دعائهم ، فيعبدوا ربهم بما شرع لهم ، ويتبعوا الرسول فيما سن لهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

الشفاعة

الشفع الزوج خلاف الوتر ، تقول كان الشيء وتراً فشفعته إذا ضممت اليه آخر . وشفعت الركعة جعلتها اثنتين .

وقال الراغب « الشفع ضم الشيء الى مثله . . . والشفاعة الانضمام الى آخر ناصراً له وسائلا عنه . وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة الى من هو أدنى .

فالشفاعة تحمل معنى الضم والاعانة للمشفوع له ، ومعنى الجاه والحرمة للشفيع عند المشفوع اليه ، فسعيك لآخر فى حاجة له عند عظيم شفاعة وأنت شفيع وذلك الآخر مشفوع له ، وذلك العظيم مشفوع اليه ، وقضاء تلك الحاجة تشفيع .

والشفاعة لا تعدو ثلاثة أحوال ، إما أن تكون من المخلوق الى مثله أو من الخالق الى المخلوق ، أو من المخلوق الى الخالق .

فأما شفاعة المخلوق الى مثله فهى مظهر من مظاهر التعاون اذا كان المشفوع اليه يملك التصرف فيما طلب منه على مقتضى الأسباب العادية ، والتعاون اذا كان على الخير مطلوب بالكتاب والسنة ، والشفاعة منه ثابتة بهما ، ففى سورة النساء : من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها)

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال: اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان رسوله ما شاء.

فسر الراغب فى مفرداته الآية بقوله «أى من انضم إلى غيره وعاونه وصار شفعاً له أو شفيعاً فى فعل الخير والشر، فعاونه وقواه: شاركه فى نفعه وضره».

ومعنى الحديث ترغيبه ﷺ لأصحابه فى إعانة الناس عنده، سواء استطاع قضاء حاجتهم أم لم يجد إليها سبيلا. قال الحافظ فى الفتح: وفى الحديث الحض على الخير بالعمل وبالسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير فى كشف كربة ومعونة ضعيف

وأما شفاعة الخالق إلى المخلوق فممتنعة محظور طلبها لما فى سنن أبى داود وغيرها واللفظ له عن جبير بن مطعم أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال: جهدت الأنفس وضاع العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبى (ص) ويحك أتدرى ما تقول؟ وسبح رسول الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ثم قال: ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك. الحديث

وإنما امتنع الاستشفاع بالله لأن الشفيع سائل والله مسئول لا سائل. ثم الشفيع فى أصل اللغة ليس على المشفوع إليه أن يطيعه بقبول شفاعته، فى حديث بريرة أنها لما عتقت وخيرها النبى (ص) فى فراق زوجها مغيث اختارت فراقه، فجعل مغيث يبكى من حبه إياها حتى رق له النبى (ص) فقال لبريرة «لو راجعته، فقالت تأمرنى؟ فقال (ص) «إنما أنا شافع، قالت فلا حاجة لى فيه. أخرجه البخارى عن ابن عباس، فلو قال لها (ص) آمرك لراجعت زوجها مغيثا.

ولما كانت الشفاعة لا تحمل معنى الأمر، بل تترك الاختيار للمشفوع إليه أصرت على اختيارها الفراق، فلا جرم كانت الشفاعة إلى أحد مما يجل عنه مقام الألوهية.

وأما شفاعة المخلوق إلى الخالق فإما فى الدنيا وإما فى الأخرى، فالشفاعة إلى الله فى الدنيا تكون بالدعاء للمشفوع له كما تقدم فى حديث الأعمى أنه سأل الدعاء من

النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لما دعا لنفسه قال : اللهم فشفعه فى ، فطلبها من الحى الحاضر جائز كما تقدم .

وسواء دعا الشفيع للمشفوع له بأمر دنيوى أم بنفع أخروى ، كان المشفوع له حيا أم ميتا لما فى مسلم أنه ﷺ قال « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه » ولما فى الأدب المفرد للبخارى من دعائه (ص) لأنس بقوله « اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له » قال أنس : فدعا لى بثلاث ، فدفنت مائة وثلاثة وإن ثمرتى لتطعم فى السنة مرتين ، وطالت حياتى حتى استحييت من الناس ، وأرجو المغفرة

والشفاعة إلى الله فى الأخرى تكون بدعائه وسؤاله التجاوز عن سيئات المشفوع له أو التجاوز به إلى درجة أعلى ، وهى ثابتة للنبى (ص) بأحاديث كثيرة منها حديثا البخارى ومسلم السابقان فى فصل الوسيلة ، ومنها ما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « لكل نبى دعوة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة »

ومنها ما فى البخارى عنه أيضا أنه (ص) قال : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه ، ومنها عن أنس أنه (ص) قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح غريب ، والبيهقى وقال إسناده صحيح وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ، قاله فى كشف الخفاء (٢ : ١٠)

وهذه الشفاعة ثابتة أيضا لبقية الأنبياء والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين ، والقرآن والجنة .

روى ابن ماجه عن عثمان رضى الله عنه مرفوعا « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء »

وأخرج البزار عن ابن عباس رفعه إلى النبى (ص) قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه فى درجته وإن كانوا دونه فى العمل لتقر بهم عينه ، ثم قرأ (والذين

آمنوا واتبعتهم ذريتهم) الآية . ثم قال : وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين . قال في مجمع الزوائد ، وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري . وفيه ضعف ،

وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ، اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، الحديث .

وإن من الشفاعات الأخروية ما يختص بالنبي (ص) ومنها ما لا يختص به ، ففي الفتح عن النووي وعياض ، الشفاعة خمس ، في الإراحة من هول الموقف ، وفي إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وفي إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا ، وفي إخراج من أدخل النار من العصاة ، وفي رفع الدرجات ،

ولا يتقدم الشفيع يوم القيامة للشفاعة إلا أن يستجمع أربعة شروط ، أحدها أن يكون من المرتضين عند الله بإيمانه الصحيح وعمله الصالح ، ثانيها أن يكون المشفوع فيه من المؤمنين الموحدين الصادقين ، ثالثها : أن يأذن الله للشفيع . رابعها أن يحد له من يشفع فيهم .

ففي حديث الشفاعة الطويل عند البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه ، عنه ﷺ أنه قال . . . ثم أشفع فيحد لي حداً ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً مثله في الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن ، فهذا دليل الشرط الرابع . ودلت الآيات على بقية الشروط .

قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) قال ابن كثير : وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أن لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة .

وقال أيضا (يدبر الأمر ما من شافع إلا من بعد إذنه) وهذا رد على النضر ابن الحارث فإنه كان يقول : إذا كان يوم القيامة تشفع لي اللات والعزى . قاله البغوي . وقال الراغب في تفسير الآية من مفرداته ، أي يدبر الأمر وحده لا ثاني له في فصل الأمر إلا أن يأذن للمدبرات والمقسمات من الملائكة فيفعلون ما يفعلونه بعد إذنه ،

وقال تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال ابن كثير عن ابن عباس : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل .

وقال (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) قال البغوى عن ابن عباس : يعنى يرضى قوله قول لا إله إلا الله . وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن .

وقال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) قال البغوى عن مجاهد : أى لمن رضى عنه .

وقال : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا) قال البغوى عن مجاهد : لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . وقال (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) قال البغوى عن ابن عباس : يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضى الله عنه .

وبكلام ابن كثير على آية البقرة تعلم سر هاته الشفاعة المقيدة بتلك القيود وأن حكمتها إظهار جلال الله وعظمته وإعلان كرامة الشفيع ووجاهته وإيئاس المسرفين على أنفسهم من كل مخلوق إلا من رحمة الله .

وطلب الشفاعة الأخروية على أربعة أنحاء (أحدها) طلبها من الله ، كأن تقول : اللهم شفع فينا خاتم النبيين وإمام المرسلين ، فهذا طلب صحيح ودعاء مشروع ، لأن الشفاعة لله جميعا .

ثانيها : طلبها فى هاته الحياة ممن علم أنه من أهلها وهو حى حاضر ، كأن يقول الصحابى : يا رسول الله أسألك شفاعتك غداً . وهذا أيضا صحيح لحديث أنس رضى الله عنه أنه سألها من رسول الله (ص) فقال « أنا فاعل » رواه الترمذى وحسنه . ولقول غلام للنبى (ص) أسألك أن تجعلنى ممن تشفع له يوم القيامة فقال له « فإنك ممن أشفع له يوم القيامة » رواه الطبرانى بأسانيد بعضها رجاله رجال الصحيح وبعضها رجاله ثقات ، قاله فى مجمع الزوائد ، ولا يجوز هذا الطلب من غير

الرسول كما لا يجوز لغير الرسول الوعد بها ، لأن ذلك يتوقف على العلم بالإذن بها للمطلوب وكونه هو والطالب من أهل الجنة . ولا يجزم بشيء من ذلك إلا بوحي .

ثالثها : طلبها من الشفيع يوم القيامة . وهو ثابت بحديث الشفاعة المروى فى الصحيحين وغيرهما عن أنس وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم . الحديث

رابعها : طلبها اليوم ممن انتقل إلى عالم الغيب ، فإن كان المطلوب نبى الرحمة فالطلب بدعة لم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، كما نقله فى صيانة الإنسان من الصارم المنكى لابن عبد الهادى ، وإن كان المطلوب من صلحاء الامة ففيه من المفاسد اعتقاد علم المدعو بالغيب والجزم له بالجنة وبإذن الله له فى الشفاعة وإدخال الطالب فى المأذون بالشفاعة فيهم ، ومن التزم هذه اللوازم فقد أشرك أو كان منه قاب قوسين .

أيها الراجى لنيل الشفاعة — حقق الله رجاءك — لا تجعل الرجاء وحده طريقتك إليها ولا وحدتك لاستحقاقها ، فتكون من المغترين ، وحال المشركين من المشبهين ، ولكن وحد إلى قلبك فاسره بالإيمان الخالص من نزغات الوثنية ونزغات إبليس عدو أبويك ادم وحواء ، حتى يكون لجنانك السلطان على أركانك ، وأحب نبيك محبة اقتداء واستنان ، ولا تنس الصلاة عليه وسؤال الوسيلة له بعد الاذان ، فإذا فعلت ذلك كان رجاؤك للشفاعة مبنيا على حديث : أسعد الناس بشفاعتى وحديث سؤال الوسيلة بعد الأذان ، ومن لم يفعل ذلك وقع تحت الانذار بسوء مغبة الاغترار بسراب الأمانى ، مع التهاون بصالح الأعمال .

وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة قالت : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يافاطمة ابنة محمد ، ياصفية ابنة عبد المطلب يا بنى عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا ، سلونى من مالى ما شئتم .

فمن تعلق بالمخلوق وتقرب إليه ليشفع له عند الله ، وظن تعلقه ذلك تعظيما لذلك المخلوق يرضاه الله ، فقد آذنه الله ورسوله بخطأ ظنه وفساد تقربه ، وأن فى ذلك

التعلق تنقيصا لله يتنزه عنه ، ذلك أن الجاهلين بالله من اهل الكتاب والمشركين يقيسون أحوال الآخرة على أحوال الدنيا ، وأحكام الله على أحكام الملوك . فإذا كان المجرم فى الدنيا قد ينجو من سطوة القانون وقضاء الحاكم عليه بشفاعة وجيه عنده كان المجرم فى الآخرة قد ينجو من عذاب الله بشفاعة نبى أو ملك أو ولى ، وهو قياس فاسد نقلا وعقلا . أما النقل فما تقدم من نفى الشفاعة لمن رجوها من غير الله وبلا سببها المشروع . وأما العقل فإن كل مؤمن بالله يعتقد أنه محيط بكل شىء علما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يفعل ما يفعل حكمة ورحمة لا رغبة ولا رهبة ، وملوك الدنيا يجهلون كثيراً من أحوال قصورهم ، فضلا عما نأى عنهم ، ويريدون الشىء ثم يرجعون عنه ، ويرغبون فى إرضاء أعيان دولتهم ويرهبون إسخاطهم .

والشفاعة إلى الله دعاء يفعل الله عقبه ما سبق فى علمه وإرادته أن سيفعله وقبولها من الشفيع تكرمة له ورحمة بالمشفوع ، فأما الشفاعة إلى ملوك الدنيا فهى إعلام لهم بما لم يكونوا يعلمون من براءة المتهم أو علاقته بالشفيع ، وتغيير لإرادتهم العقوبة بإرادة العفو . والباعث لهم على التشفيع الرغبة فى موافقة الشفيع أو الرهبة من مخالفته ، وكل ذلك ينادى بقصور علمهم وضعف إرادتهم وعجزهم عن الاستقلال بتدبير مملكتهم ، وهذه علامة الحدوث الشاهدة بانفراد الله بالكمال المطلق

والشفاعة إلى الملوك هى عند التأمل الصائب مشاركة لهم من الشفعاء فى الملك ، فمن قاس الشفاعة إلى الله عليها فقد أشرك بالله ووصفه بما يتنزه عنه كما نطقت بذلك آية (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ودلت عليه الآية الجامعة لنفى أقسام الشرك إذ قال أثرها (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)

وهذا وجه الجمع بين ماجاء فى إثبات الشفاعة ونفيها وأن المثبت منها هى الشرعية والمنفى هى الشركية ، وبه تعلم مراد الدعاة المرشدين فى تحذير العامة من الاتكال على الشفاعة والتقرب إلى من ترام من أهلها ، فلم ينكروا عليك أصل اعتقاد

الشفاعة ، وإنما حذروك من الاعتقاد الفاسد الذى صحبها ، قال فى صيانة الانسان نقلا عن الشوكانى :

« إن الرزية كل الرزية والبلية كل البلية أمر غير ما ذكرنا من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة ، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص فى أهل القبور وفى المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على مالا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ، ويفعلون مالا يفعله إلا الله عز وجل ، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم ، فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالا ، ويصرخون بأسمائهم ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع ويخضعون لهم خضوعا زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدى ربهم فى الصلاة والدعاء ، وهذا إذا لم يكن شركاً فلا ندرى ما هو الشرك ؟ وإذا لم يكن كفراً فليس فى الدنيا كفر .

أيها المسلم : اتبع القرآن فيما أرشدك إليه يشفع لك عند الله ، ولا تحد عن سنة رسول الله تشملك — إن شاء الله — شفاعته ، ولا تقنط من رحمة الله وترجو رحمة سواه فإنه أرحم الراحمين (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

الزيارة والمزارات

قال فى المصباح « والزيارة فى العرف قصد المزور إكراماً له واستئناسا به » وفى شرح الشفاء للخفاجى « الزيارة تختص بمجىء بعض الأحياء لبعض مودة ومحبة ، هذا أصل معناها لغة ، واستعمالها فى القبور للأموات لإعطائهم حكم الأحياء ، وصار حقيقة عرفية لشيوعه فيها » .

والمزارات عندنا هى مواضع قررت العادة زيارتها للتبرك بمن جلس فيها من الصلحاء أو دفن عندها أوسميت به وإن لم يرها أو أشار معتقد فيه بظهور روحانى بها .

والكلام على الزيارة وما يتصل بها فى سبعة مباحث هى زيارة الأحياء، وزيارة الأموات، وحياة الارواح، وعطايا الزوار، واتخاذ المزارات، والسفر إليها، والغرض من الزيارة.

فأما زيارة الأحياء فقد أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم فعلا ورغب فيها قولا إذا كانت لغرض صحيح.

ففى مسلم عن أنس أن أبا بكر قال لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، وأنهما بكيا عند رؤيتهما من فقد النبى صلى الله عليه وسلم فأبكتهما.

وفيه وفى الأدب المفرد عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال أريد أخا لى فى هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال لا غير أنى أحببته فى الله تعالى، قال فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه - وأرصده بالشىء وكله بحفظه، والمدرجة بفتح فسكون الطريق، وتربها تقوم بها وتسعى فى صلاحها.

وعنه أيضا أنه ﷺ قال: من عاد مريضا أو زار أخا له فى الله ناداه مناديان طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا. رواه الترمذى وقال حديث حسن.

وأما زيارة الأموات، فقد منع منها ﷺ ثم أذن فيها، ودلت الأحاديث على زيارة قبور الوالدين وغيرهم من المؤمنين والكافرين لغرض مشروع، ونص العلماء على استحبابها للرجال، أما النساء فمنهم من منعهن ومنهم من كرهها لهن، ومنهم من أذن لهن مع أمن الفتنة.

فعن ابن عباس: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج. أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى، والسرج بضمتين جمع سراج.

وعن بريدة أنه (ص) قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. أخرجه مسلم وزاد فيه أحمد بسند رجاله رجال الصحيح: فإن فيها عبرة.

وعنه أيضا : كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا - إن شاء الله - بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية . أخرجه مسلم وغيره

وعن أبى هريرة أنه (ص) قال : من زار قبر أبويه أو أحدهما كل جمعة غفر له وكتب برا . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعنه أيضا أنه (ص) زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال : استأذنت ربى عز وجل فى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنت فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت . أخرجه مسلم ورواه النسائى تحت عنوان « زيارة قبر المشرك »

وأما حياة الأرواح فهى ثابتة ، سواء أرواح المؤمنين أم الكافرين .

قال تعالى فى شهداء بدر « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »

وقال فى شهداء أحد « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »

وعن أنس أنه (ص) قال : إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد (ص) ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً خيراً منه . قال رسول الله (ص) فيراهما جميعا ، وأما الكافر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى ، كنت أقول كما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين . أخرجه البخارى والنسائى .

وهناك نصوص تدل على حياة الأرواح حياة لا نشعر بها وعلى علمها بزيارة الأحياء لمقابرها وعلى علمها بأحوال من بقى بعد أصحابها من مخالطيهم وعلى سماعها

كلامهم . وقوله تعالى « إنك لا تسمع الموتى » أريد فيه من الإسماع معنى الهداية . وهى متفاوتة فى هذه الحياة ، أعلاها أرواح الأنبياء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ثم الكافرين . وعلى كل حال هى حياة غيبية لا تشبه حياتنا الدنيا فلا معاملة بيننا وبينها بالبيع والإجارة والنكاح ، ولا تكلف مثلنا بالعبادات

وأما اتخاذ المزارات فممنوع ولو للصلاة فيها ، سواء بالبناء على القبور أم بتعليق الخيوط على أشجار أم بوضع المباخر والمصابيح عندها .

فنى الموطأ والصحيحين عن عائشة وغيرها أن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وروى « لعن » مكان « قاتل » .

وعن أبى الهياج أن عليا قال له : ألا أبعثك على ما بعثنى رسول الله (ص) « لا تدعن قبراً مشرفا إلا سويته ولا صورة فى بيت إلا طمستها » رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وهذا لفظه .

وأما السفر إلى المزارات ففى الموطأ عن أبى هريرة أنه قال : لقيت بصرة بن أبى بصرة الغفارى فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت من الطور ، فقال : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت ، سمعت رسول الله (ص) يقول « لا تُعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد : إلى المسجد الحرام وإلى مسجدى هذا وإلى مسجد إيليا أو بيت المقدس — يشك » وإيليا وبيت المقدس واحد ، وإنما الشك فيما لفظ به الرسول منهما .

وحديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد فى الصحيحين .

قال البيضاوى « لما كان ما عدا الثلاثة من المساجد متساوية الأقدار فى الشرف والفضل ، وكان التنقل والارتحال لأجلها عبثا ضائعا نهى عنه ، لأنه ينبغى للإنسان أن لا يشتغل إلا بما فيه صلاح دنيوى أو فلاح أخروى . قال : والمقتضى لشرف الثلاثة أنها أبنية الأنبياء ومتعبداتهم »

وقال الزرقانى فى شرح الموطأ : وإنما حظر البناء على القبور خشية أن يعبد المقبور .

ويظهر من هذا مشروعية زيارة الأمكنة التى اشتملت على معنى يشرفها لكن بخمسة قيود : الأول : أن لا يتخذ عليها بناء ولا شيء يميزها . الثانى أن لا يعلق بها خيوط ونحوها . الثالث أن لا يكون لها سدنة يستشرفون لما فى أيدى الزائرين . الرابع أن لا يرجى منها النفع والخير رجاء المشركين ذلك من أصنامهم لأنه من معنى العبادة . الخامس أن لا يسافر إليها السفر الطويل فى غير المساجد الثلاثة ، وفى غير زيارة المتحابين من الأحياء .

وأما الغرض من الزيارة فليس الناس متحدين فيه ، وقد يكون للزائر غرض واحد ، وقد تجتمع له أغراض ؛ ولبيان ما هو من الأغراض مسنون أو مبتدع نفصلها إلى سبعة أنواع :

الأول : محبة المزور وإكرامه وبره ، وهذا غرض صحيح فى زيارة الأحياء والأموات إذا كانت للزائر علاقة بالمزور من قرابة أو صداقة . قال السبكى فى شفاء السقام « ويشبه أن تكون زيارة النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه من هذا القبيل » .

الثانى : الطمع فى إعانة المزور بماله أو جاهه أو رأيه ، وهذا لم يذكره من وقفنا على كلامهم فى أقسام الزيارة ، لكنه مقابل للنوع الذى قبله ، وهو غير صحيح فى الأموات لعدم صحة الاستعانة بهم ، وصحيح فى زيارة الأحياء متى كانت للزائر حاجة حاملة على الاستعانة وكان للمزور استطاعة معتادة لتلك الإعانة .

الثالث : استطلاع الغيب ، كما يزور العوام من يظنون فيهم الصلاح ممن يسميهم الشرع كهانا ليدلوهم على ما ضاع منهم بسرقة أو غيرها ، ويكشفوا لهم عن عاقبة ما أرادوه من نكاح أو شركة أو سفر أو فلاحة أو غير ذلك ، وهذا القصد فاسد منهى عنه لما تقدم فى فصل الكهانة من التشديد فى إتيان الكهان . وذكرناه فى أنواع الزيارة وإن لم يذكره غيرنا فيها ، لأن عوامنا يسمون هذا زيارة .

الرابع : الاتعاظ بتذكر الموت والاعتبار بحال الميت ومصير الحى ، وهذا غرض صحيح فى زيارة المقابر لا فرق بين من فيها من مسلم وكافر ، ولا بين القريب منك والأجنبى عنك .

الخامس : الدعاء للموتى والسلام عليهم . وهذا مشروع فى مقابر المسلمين ، سواء كانت مقابر الأولياء الصالحين أم العصاة المذنبين .

السادس : تأنيس الزائر للمزور إذا كانت بينهما مودة صادقة . وذلك صحيح فى زيارة الأحياء والأموات .

السابع : التبرك إن أراد به الانتفاع بالمزور أو المزار فى قضاء الحاجات من غير أسبابها المعتادة وطرقها الظاهرة ، فهو من نسبة التصرف فى الكون للمخلوق وذلك شرك بواح . قال فى زاد المعاد « وكان هديه صلى الله عليه وسلم أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصلاة عليه من الدعاء والترحم والاستغفار . فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه ، بعكس هديه ﷺ فإنه هدى توحيد وإحسان إلى الميت ، وهدى هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت » .

وقد يعبرون عن هذا الضرب من التبرك بالاستمداد من أرواح الصالحين ويعتقدون أنهم أحياء فى قبورهم يتصرفون فى العالم ويقضون حاجات قاصديهم ويستدل مستدلهم بما ورد فى حياة الأرواح مما قدمنا أصحه وأصرحه ، فيتخذون المزارات يبنون عليها البناءات ويرون أن روح الصالح فلان هنالك ، إما لأنه دفن هنالك أو جلس به .

وكل هذا جهل وضلال فإن توحيد الله متناول لتوحيد التوجه إليه والاستعانة به فيما لم ينصب له سببا عاديا . وابن آدم بلغ فضله ما بلغ ليس له إلا التصرف المعتاد ما دامت روحه بجسده فى عالم الشهادة ، ولا تأثير للأرواح التى فى عالم الملكوت فى شىء من عالم الملك . ومن عاند فى ذلك فجربه بأن تشترى منه أرضا مثلا بالدين ، فإذا تقاضاك فقل له : إن جدك الولى الصالح الذى كان يملك هذه الأرض وورثتها عنه قد جاءتنى روحه وأخذت منى الثمن ، فما يكون جوابه ؟ وكيف يحكم الناس على هذه الدعوى ؟

وقد علمت الحكم فى البناء على القبور وحكمته ، وأجمع الصحابة على العمل به .

فلم يبنوا على الأمكنة التى جلس فيها الرسول فى أسفاره إلى الحج والعمرة والغزو ، وهم عالمون بها وشديدو الحب له . ولم ينوطوا بشجرة الرضوان ولا غيرها خيوطا وخرقا ، ولا وضعوا تحتها مباخر ومصابيح ، ولا قبلوا غير الحجر الأسود أو تمسحوا بشىء من غير أركان البيت ، بل نهى أمير المؤمنين ومحدث هذه الأمة عمر ابن الخطاب عن تعمد العدول إلى مواضع سجوده ﷺ فى طريق المدينة إلى مكة . وقطع شجرة الرضوان ، وبين وجه تقبيله للحجر الأسود كما تقدم .

ها قد أوضحنا لكم ما فى الزيارة من رشد وغى ، فكونوا من عباد الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا تكونوا ممن حقت عليهم كلمة الله (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا)

الذبائح

الذبائح جمع ذبيحة ، وهى ما يذبح من الحيوان ، وأصل الذبح الشق ، وذبح الحيوان شق حلقه ، والذبيحة إن قصد بها إلى القربة فهى من العبادات وإلا فهى من العادة ، والذبح العادى ما يكرم به الذابح نفسه ويوسع به على عياله أو يقدمه لضيفه . وهذا كالذى تراه فى أسواق الجزارين ، وهو من النعيم المباح إذا استوفيت شروط الذكاة المبينة فى كتب الفروع .

والذبح الدينى يسمى نسكا ، وكانت العرب تنسك فى جاهليتها النسائك حول أصنامها وأنصابها تقربا إليها وتحتفل لذلك على نحو ما تراه اليوم فى الموالد ، ومن نسائكهم الفرع والعتيرة .

وقد جاء الاسلام بوجوب توحيد الله والاخلاص له فى جميع الأعمال ، ما كان منها عادة وما كان منها عبادة ، وقد قرر أبو إسحاق الشاطبى فى كتاب المقاصد من الموافقات كليات لها تعلق بهذا الموضوع ، وشرحها وبسط القول فيها ، ونحن نثبتها للاستدلال بها لا لشرحها وتقريرها .

الكلية الأولى : إن المقصد الشرعى من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً .

الثانية : أن المقاصد الشرعية ضربان ، مقاصد أصلية ومقاصد تابعة ، فالأولى هى الفروض التى لا حظ فيها للنفس ، والأخرى هى المباحات العادية التى روعى فيها حظ المكلف .

الثالثة : أن العمل إذا وقع على وفق المقاصد التابعة فلا بد أن تصاحبه المقاصد الأصلية ، ومعنى ذلك أن تكون الأعمال العادية المباحة معمولة على مقتضى المشروع لا يقصد بها عمل جاهلى ولا اختراع شيطانى ولا تشبه بغير أهل الملة .

الرابعة : أن كل من ابتغى فى تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة ، وكل من ناقضها فعمله فى المناقضة باطل .

والنسائك فى الإسلام ثلاثة : الأضحية والعقيقة والهدى للكعبة خاصة لا للأضرحة والمزارات ، واذا لم تكن الذبيحة نسيكة تعبدية وجب أن تكون على الوجه المأذون فيه .

قال تعالى (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت) فعطف النسك على الصلاة .

وقال « فصل لربك وانحر » يريد نحر النسك كما فسره الجمهور ، وعطفه على الصلاة كما فى الآية قبلها ينادى بأن الذبح لغير الله كالصلاة لغير الله ، لو رأى الناس مسلما يصلى لغير الله لبادروا إلى تكفيره من غير استفتاء علماء الدين وهم مصيبون ولو رأوا - وكم رأوا - من يذبح لغير الله لرضوا بهذا الصنيع وتأول لهم علماء الأغراض بما يحسن هذا الفعل الشنيع ، وما هذه التفرقة إلا أنهم ألفوا الذبح لغير الله ولم يألفوا الصلاة لغير الله .

حدثنى الثقة أن الشيخ يوسف بن الدرويش من شيوخ الطريقة الرحمانية قرب الميلية حدثه عن مريده فلان أنه توجه إليه وصلى له فجعل هو ينتقل من ناحية إلى أخرى ومريده يتبعه مستقبلا إياه ، حدثه هذا الحديث وهو مغتبط بتعظيم مريده له .

وقال تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » .

وفى صحيح مسلم ونحوه فى الأدب المفرد عن على بن أبى طالب أنه أتاه رجل فقال : ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يسر إليك؟ فغضب وقال : ما كان النبى (ص) يسر إلىَّ شيئا يكتمه الناس غير أنه حدثنى بكلمات أربع . فقال الرجل ما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال ﷺ : لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غيّر منار الأرض . والمحدث هو المفسد فى الأرض ، ومنار الأرض تخومها وعلامات حدودها .

وروى أحمد عن طارق بن شهاب الجبلى عن النبى ﷺ : دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب ، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئا ، قالوا لأحدهما قرّب ، قال ليس عندى شىء أقرب ، قالوا قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر قرب ، قال ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة ، واكتفاء هؤلاء المشركين بتقريب الذباب اعتداد بأضعف مظاهر الطاعة ، إذ المقصود الأعظم هو اعتقاد القلب .

وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أنه ﷺ قال : لا فرع ولا عتيرة .

وفى تفسير الشوكانى : أن مما أهل به لغير الله ما يقع من المعتقدين فى الأموات من الذبح على قبورهم ، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن .

وقال النووى فى شرح مسلم عند الكلام على حديث : لعن من ذبح لغير الله . وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح بغير اسم الله تعالى ، كمن ذبح لصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما أو للكعبة ونحو ذلك ، فكل هذا حرام ولا تحل الذبيحة ، سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا ، نص عليه الشافعى واتفق عليه أصحابنا .

فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفراً ، فإن كان الذابح مسلما قبل ذلك صار بالذبح مرتداً .

وتفسير النووى : الذبح لغير الله بالذبح بغير اسمه تعالى مبنى على المعقول من أن ما يراد به غير الله يذكر عليه اسم ذلك الغير . وذكر اسم الله فى هذه الحالة لغو لأن النية هى علة التحريم لحديث الشيخين : إنما الأعمال بالنيات ، وحديث مسلم عن أبى هريرة عنه ﷺ : إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم .

وقد يقول الجامدون والمغرضون : إنا نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر ، وقد ظهر من حال الذابح أنه ذكر اسم الله فلا نبحث عن نيته الباطنة ، فنقول لهم أولا إن المفتى لا يقتصر دائما على الظواهر ، فنى الأيمان والطلاق مسائل تنبنى على النية والقصد ويختلف حكمها باختلاف النية مع اتحاد اللفظ .

وثانيا أن من السرائر ماتحف به قرائن تجعل الحكم للنية ولا تقبل معه الظواهر . وذبائح الموالد من هذا القبيل ، فإن كل من خالط العامة يجزم بأن قصدهم بها التقرب من صاحب المزار ، ويكشف عن ذلك أشياء .

أحدها : أنهم يضيفون الذبيحة إلى صاحب المزار ، فيقولون : عجل السيد وفول السيدة .

ثانيها : أنهم يفعلونها عند قبره ، وفى جواره ، ولا يرضون لها مكاناً آخر .

ثالثها : أنهم إن نهوا عن فعلها فى المكان الخاص غضبوا ورموا الناهى بضعف الدين أو الإلحاد ، وقد يجاوزون الجهر بالسوء من القول إلى مد الأيدى بالاذاية .

وبعد فإن نظر الناس اليوم إلى هذه الذبائح على ثلاث درجات . الأولى أنها من الشرك ، فيجب على العلماء تحذير الأمة منها والنصح باجتنابها ، ويجب على الأمة الاتباع والمبادرة إلى الاقلاع ، وذليل ذلك مشابهتها فى المعنى لعمل الجاهلية وقرابينها واجتماعاتها على أنصابها وأصنامها .

الدرجة الثانية أنها معصية لا تنتهى إلى الشرك وقوفا عند الظواهر التى تشتمل ذبائح الموالد عليها من إسراف واستدانة وشهود مناكر من تطبيل وتزمير ورقص وصياح وتخبط كالذى يتخبطه الشيطان من المس إلى موبقات أخر من خمر واختلاء

بالأجنبيات واختلاط بهن ، وقد بنى هذا الفريق نظره على حكم الفروع فأصاب . وأغفل جهات الأصول فأخطأ .

الدرجة الثالثة : استحسانها نظراً إلى ما يقع فيها من التزاور ومواساة الفقراء ، ثم هي داخلة في النذر وإهداء الثواب للميت .

أما ما فيها من التزاور والمواساة فالجواب عنه أولا أن أغلب المجتمعين يضيعون الصلوات يوم المولد ، ولا يشهد كثير منهم الجمع والأعياد ، ولا يصلون الأرحام . وكثير من الفقراء والأيتام مقهورون عن الطعام منهورون ، وثانيا أن المقصود بالذات هو التقرب من صاحب الضريح ، وثالثا أن ما في المولد من مفاسد أطم من ذلك الطفيف من المحاسن لو قصد بالذات . وغلبة مفسدة الشيء على مصلحته دليل الحظر منه كما قاله العلماء أخذاً من قوله تعالى في الخمر والميسر (وإثمهما أكبر من نفعهما) .

ثم لو كانت ذبائح الموالد خيراً - وهي كثيرة عندنا - لظهر خيرها أو لقلت كما قل كل خير ولكان السلف أولى بها كما هم أولى منا بكل خير ، فهل فعلها النبي ﷺ على قبر سيد الشهداء عمه حمزة ؟ أم صنعها الصحابة على القبر الشريف ؟ أم اتخذها التابعون على قبور الخلفاء أو الشهداء أو غيرهم ممن كل واحد منهم خير من ألف ممن يذبحون لهم اليوم ؟ كلا لم يكن شيء من ذلك .

وإذا قيل للناس إن هؤلاء الضرائح والمزارات من الأوثان ، قالوا إنكم تسبوا الصالحين ، يا إخواننا افهموا لغة العرب والدين تجدوا أن ذلك ليس من الطعن على الأولياء ، فإن كل ما نصب ليعبد من دون الله فهو وثن أو صنم ، وكل من عبده فهو هالك ، وليس كل معبود من دون الله هالكا ، قال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ، إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) فتلك المزارات والضرائح من الأوثان وإن كانت منسوبة إلى ولي صالح .

وتلك الاجتماعات عليها والموالد هي من أعياد الجاهلية ، فلو فرضنا أحداً نذر لها شيئا فهو عاص بالوفاء به ، فإن أضاف إليه التقرب من صاحبها فهو مشرك .

وفى فتح المجيد ، قال الرافعى فى شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التى على قبر ولى أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء أو تردد فى تلك البقعة من الأولياء والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك ، وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة تعظيم البقعة والمشهد أو الزاوية أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه ؛ فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى أنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم إنه استند اليها عبد صالح . وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت . ويقولون القبر الفلانى أو المكان الفلانى يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض أو قدوم غائب أو سلامة مال وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لاشك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا . ومن ذلك نذر الشمع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركا وتعظيما ظانا أن ذلك قربة ، فهذا مما لا ريب فى بطلانه ، والإيقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به هنالك منتفع أم لا .

النــذر

النذر مصدر نذر الشىء ينذره كضربه يضربه وقتله يقتله . ومعناه إيجاب الشىء على النفس مطلقا وقيل بشرط ، وجرى الراغب على الثانى فقال ، أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر ، ومثله قول ثعلب ، النذر وعد بشرط ، حكاه الخطابى .

وعن ابن عمر أنه قال : أو لم ينهوا عن النذر ، إن النبى ﷺ قال : إن النذر لايقدم شيئا ولا يؤخر ، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل ، أخرجه الشيخان وغيرهما

ونذر المجازاة لا يخلو ، إما أن يعتقد الناذر أن له دخلا فى تحقيق ما علقه عليه أو لا ، وعلى الحالة الأولى حمل الخطابى فى معالم السنن حديث ابن عمر فقال « وجه الحديث أنه قد أعلمهم أن ذلك أمر لا يجلب لهم فى العاجل نفعا ولا يصرف عنهم ضراً ولا يرد شيئا قضاه الله ، يقول : فلا تنذروا على أنكم تدركون بالنذر شيئا لم يقدره الله لكم أو تصرفون عن أنفسكم شيئا جرى القضاء به عليكم » .

وعلى الحالة الثانية حمله الباجى فى المنتقى فقال « إنما معنى ذلك أن تنذر لمعنى من أمر الدنيا مثل أن تقول : إن شفى الله مريضى أو قدم غائبى أو نجانى من أمر كذا أو رزقنى كذا فإنى أصوم يومين أو أصلى صلاة أو أتصدق بكذا ، فهذا المكروه المنهى عنه .

وذكر القرطبى فى المفهم الحالتين ، فنقل عنه الحافظ فى الفتح أنه قال « هذا النهى محله أن يقول مثلا : إن شفى الله مريضى فعلىّ صدقة كذا ، ووجه الكراهة أنه لما وقف فعل القربة المذكور على حصول الغرض المذكور ظهر أنه لم يتمحض له نية التقرب إلى الله تعالى لما صدر منه ، بل سلك فيها مسلك المعاوضة . ويوضحه أنه لو لم يشف مريضه لم يتصدق بما علقه على شفائه ، وهذه حالة البخيل فإنه لا يخرج من ماله شيئا إلا بعوض عاجل يزيد على ما أخرج غالبا ، وهذا المعنى هو المشار إليه فى الحديث بقوله : وإنما يستخرج به من البخيل ما لم يكن البخيل يخرجه

والخلاصة أن النذر المشروع لا يكون إلا لله وأن المحمود منه ما لم يكن معلقا على حصول غرض دنيوى وأن المعلق منهى عن الاقدام عليه .

فإن كان النذر للمخلوق من نبى أو ولى فهو شرك بالله فى هذه العبادة يحرم الإقدام عليه والوفاء به معا لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى (ص) قال « لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله تعالى » رواه أحمد وأبو داود والبيهقى . ولحديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » رواه البخارى وأصحاب السنن .

وقد أصبح الناس فى جاهليتهم الحاضرة ينذرون لمن يعتقدون فيه من الأحياء

والأموات والمزارات الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخور والأطعمة وسائر المتمولات، ويعتقدون أن نذرهم يقربهم من رضى المنذور له، وأن لذلك المنذور له دخلا فى حصول غرضهم، فإن حصل مطلوبهم ازدادوا تعلقا بمن نذروا له واشتدت خشيتهم منه وبذلوا أقصى طاقتهم فى الاحتفال بالوفاء له، ولم يستسيغوا لأنفسهم التقصير أو التأخير. ذلك أن جاهليتنا على شدة اهتمامها بحق أوليائها منها من لا يبالى مع ذلك بالصلاة أو بالزكاة أو بهما معا، ومن صلى وزكى لا ينكر على تاركهما ماينكره على من تراخى فى زيارة شيخ طريقة أو إقامة مولد أو أداء وعده

قال الصنعانى فى سبل السلام: وأما النذور المعروفة فى هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام فى تحريمها، لأن الناذر يعتقد فى صاحب القبر أنه ينفع ويضر، ويجلب الخير ويدفع الشر، ويعافى الأليم ويشفى السقيم، وهذا هو الذى كان يفعله عباد الأوثان بعينه، فيحرم كما يحرم النذر على الوثن، ويحرم قبضه لأنه تقرير على الشرك، ويجب النهى عنه وإبانة أنه من أعظم المحرمات وأنه الذى كان يفعله عباد الأصنام، لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وصارت تعقد اللواءات لقباض النذور على الأموات، ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات، وينحر فى بابه النحائر من الأنعام، وهذا هو بعينه الذى كان عليه عباد الأصنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

اليمين

اليمين والقسم والحلف ألفاظ مترادفة فى الاستعمال، وأصل اليمين اليد المقابلة للشمال من الإنسان وغيره، استعملت بمعنى الحلف لأنهم كانوا - كما فى الصحاح وغيره - إذا تحالفوا ضرب كل امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه. قال ابن العربى فى أحكامه: وحقيقة اليمين ربط العقد بالامتناع والترك أو بالإقدام على فعل، بمعنى معظم حقيقة أو اعتقاد.

فالحلف بالشىء يقتضى تعظيمه، ومنع النفس من الفعل أو عزمها عليه لمجرد عظمة المحلوف به، والعظمة نوعان: أحدهما يختص بالله، وهى التى يشعر بها المرء

ولا يعرف منشأها ويرى لصاحبها عليه سلطة غير محدودة . وهى العظمة الغيبية . وثانيهما ما يتصف به المخلوق وهى التى تنشأ عن أسباب معروفة وتقتضى سلطة خاصة . وأسبابها المعروفة إما الكمال الدينى بالعبادة . فالولى عظيم لوقوعها منه . والمسجد عظيم لوقوعها فيه . وإما الكمال الدنيوى بالمال والأتباع كالتى يعرفها أهل الدنيا للملوك والأمراء والأغنياء . وإما الشرف الأصلى وهو ما للآباء على أبنائهم . والعظمة الغيبية تقتضى عبادة من وصف بها . والتى تحدث عن أسباب لا تقتضى عبادة المتصف بها . ولما كانت العبادة لا تكون إلا لله كانت العظمة الغيبية لا تكون إلا له فمن اعتقدها فى سواه فهو مشرك .

وقد عرفوا اليمين الشرعية على أنها خاصة بالخالق . فقال الحافظ فى الفتح : هى توكيد الشىء بذكر اسم أو صفة لله . ونحوه قول خليل : اليمين تحقيق ما لم يجب بذكر اسم الله أو صفته . وجاءت أحاديث فى الحلف بالله وغيره .

(١) فعن ابن عمر أنه (ص) أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب يحلف بأبيه فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » أخرجه الشيخان .

(٢) وعنه أيضاً أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه

وعن قتيلة (بالتصغير) (رض) أن يهودياً أتى النبى (ص) فقال : إنكم تندهون وإنكم تشركون : تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة . فأمرهم النبى (ص) إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة ، ويقولون ما شاء الله ثم شئت . أخرجه أحمد والنسائى وابن ماجه والطبرانى وابن منده . وصححه الحافظ فى الإصابة وفى نيل الأوطار أن النسائى صححه .

وعن ابن مسعود (ض) لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره وأنا صادق . أخرجه الطبرانى فى الكبير موقوفاً عليه . ورجاله رجال الصحيح

نهى الرسول ﷺ عن الحلف بالمخلوق فأبى أكثر الناس إلا الحلف به .

وأغلظ فى النهى حتى بلغ به نهى الشرك والكفر ، فأجروا هذه اليمين على ألسنتهم أكثر من اليمين بالله . وأمر من حلف بالله أن يصدق ، فتلاعبوا باليمين الشرعية واحترموا اليمين الشركية . وأمر من حلف له بالله أن يرضى ويكل أمر الحالف إلى الله ، فلم يطمئنوا إلا للحلف بأوليائهم .

وهكذا تراهم يعظمون الأيمان بأوليائهم ويخشون الحنث فيها أكثر من تعظيم اليمين بالله وخشية الحنث فيها ، فيحلفون بالله كاذبين فى استخفاف وعدم مبالاة ، ولا يقتنعون بيمين من حلف لهم بالله ولا يكتفون بها ، ولا يقدمون على الحلف بشيوخهم بمرابطيهم وشيوخ طرقهم كذباً ، ولا يكذبون من حلف بهم ، بل يمتقع لون الواحد منهم إذا حاول الحلف بهم أو سمع من أسرع إلى ذلك الحلف ، وكم بلغنا أنهم يستحلفون بالله على الشيء فيسرعون إلى الحلف على خلاف الواقع ، ثم يستحلفون بشيوخهم أو آبائهم على ذلك الشيء نفسه فتخرس ألسنتهم وتجف أرياقهم ويعترفون بكذبهم فى اليمين بالله ولا يستحون . يا لله للمسلمين (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وليست هذه الحالة المنكرة خاصة بعصرنا أو مصرنا .

قال الشوكانى فى نيل الأوطار عقب ذكر مفاسد البناء على القبور « وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً . فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك المشركين .

فياعلماء الدين ويا ملوك المسلمين أى رزء للإسلام أشد من الكفر ؟ وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ؟ وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا .

وقد بقى علينا أن نعرف وجه ما جاء فى الكتاب والسنة من القسم بغير الله ، ففى الكتاب الإقسام بالطور والنجم والشمس والقمر والليل والنهار وغيرهن وثبت أنه ﷺ قال « أفلح وأبيه إن صدق » أخرجه أبو داود وغيره .

فأما ما ورد فى الكتاب فقال الأمير فى حاشيته على مجموعه « وإقسام الله تعالى بالنجم ونحوه لأن له أن يقسم بما شاء وبأسراره التى يعلمها فى أفعاله تنبيها على عظمتها ولسريان سر الحق فيها من غير حلول ولا اتحاد ، فإنها مظاهره مع تنزهه كما يعلم » .

وفصل محمد عبده هذا المعنى أول سورة النازعات من تفسير جزء عم فقال « جاء فى الكتاب العزيز ضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة والأشياء ، والقسم إنما يكون بشىء يخشى المقسم إذا حنث فى حلفه به أن يقع تحت المؤاخذة ، نعوذ بالله أن يتوهم شىء من هذا فى جانب الله ، وما كان الله جل شأنه يحتاج فى تأكيد اخباره إلى القسم بما هو صنع قدرته ، فليس لشىء فى الوجود قدر إذا نسب إلى قدره الذى لا يقدره القادرون ، بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده إلا أنه انبسط عليه شعاع من أشعة ظهوره جل شأنه .

« ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذى اختص به القرآن وكيف يوجد فى كلام الله ؟ فيجاب بأنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته ، إما شيئا أنكره بعض الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته . أو ذهل عن موضع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة الله فى خلقه . أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق الذى قرر الله شأنه عليه .

فيقسم الله به إما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره . أو تعظيم شأنه فى نفس من يحقره ، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره . أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم .

قال الخطابى : قوله أفلح وأبيه ، هذه كلمة جارية على ألسن العرب تستعملها كثيراً فى خطابها تريد بها التوكيد . وقد نهى رسول الله ﷺ أن يحلف الرجل بأبيه ، فيحتمل أن يكون هذا القول منه قبل النهى ، ويحتمل أن يكون جرى ذلك منه على عادة الكلام الجارى على الألسن وهو لا يقصد به القسم ، كلغو اليمين المعفو عنه . قال الله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) الآيه . قالت عائشة : هو قول الرجل فى كلامه : لا والله وبلى والله ونحو ذلك .

الى الدين الخالص

للأخ فى الله داعية الاصلاح الشيخ الطيب العقبى الجزائرى

ماتت السنة فى هذى البلاد ... قُبر العلم وفساد الجهل ساد
وفشا داء اعتقاد باطل ... فى سهول القطر طرا والنجاد
عبدَ الكل هواه شيخه ... جده ، ضلوا وضل الاعتقاد
حكموا عاداتهم فى دينهم ... دون شرع الله إذ عم الفساد
لست منهم لا ، ولا منى همو ... ويلهم يا ويلهم يوم المعاد
يوم يأتى الخلق فى الحشر وقد ... نشروا نشر فراش وجراد
يوم لا تنفعهم معذرة ... ولظى مأواهم بئس المهاد
يصهر الساكن فى أطباقها ... كلما أحرق منه الجلد عاد
وكَّل الله بمن حل بها ... جمع أملاك غلاظ وشداد
أكلهم فيها ضريع ، شربهم ... من حميم ، لبسهم فيها سواد
كلما فكرت فى أمرهمو ... طال حزنى وتغشانى السهاد

أيها الأقوام إن تبغوا الهدى ... ما لكم والله غير العلم هاد
إننى أنصحكم نصح امرىء ... ما له غير التقى والخوف زاد
كلما ينقص يوما عمره ... خوفه من هول يوم الحشر زاد
ما زرعتم ، فى غد تلقونه ... ليس يجدى ندم يوم الحصاد

أيها السائل عن معتقدى ... يبتغى منى ما يحوى الفؤاد
إننى لست ببدعى ولا ... خارجى دأبه طول العناد
يحدث البدعة فى أقوامه ... فتعم الأرض نجدا ووهاد
ليس يرضى الله من ذى بدعة ... عملا إلا إذا تاب وعاد
لست ممن يرتضى فى دينه ... ما يقول الناس زيد أو زياد
بل أنا متبع نهج الألى ... صدعوا بالحق فى طرق الرشاد

حجتى القرآن فيما قلته ليس لى إلا على ذاك استناد
وكذا ما سنه خير الورى عدتى وهو سلاحى والعتاد
وبذا أدعو إلى الله ولى أجر مشكور على ذاك الجهاد
منكمو لا أسأل الأجر ولا أبتغى شكركم بله الوداد
مذهبى شرع النبى المصطفى واعتقادى سلفى ذو سداد
خطتى علم وفكر ونظر فى شئون الكون بحث واجتهاد
وطريق الحق عندى واحد مشربى مشرب قرب لا ابتعاد

لا أرى الأشياخ فى قبضتهم كل شىء بل همو مثل العباد
وعلى من يدعى غير الذى قلته إثبات دعوى الاتحاد
قال قوم سلم الأمر لهم تكن السابق فى يوم الطراد
تنل المقصود تعطى بالمنى وترى خيلك فى الخيل الجياد
قلت إنى مسلم يا ويحكم ليس لى إلا إلى الشرع انقياد
قولكم هذا هراء أصله ما روت هند وما قالت سعاد
أنا لا أسلم نفسى لهمو لا ولا ألقى إليهم بالقياد
لست أدعوهم كما قلتم وقد عجزوا عن طرد بق أو قراد
لست من قوم على أصنامهم عكفوا يدعونها فى كل ناد
كلما أنشد شاد فيهمو قول شرك ذهبوا فى كل واد
كم بنوا قبرا وشادوا هيكلا وصروح الغى بالجهل تشاد
غرهم من داهنوا فى دينهم وارتضوا فى سيرهم « ذر الرماد »

إننى ألعنهم مهما بدا حاضر فى إفكه منهم وباد
وأنا خصم لهم أنكرهم كيفما كانوا جميعا أو فراد
علمونا طرق العجز وما منهمو من لسوى الشر أفاد
طالما جد الورى فى سعيهم وهمو كم صدهم طول الرقاد

إن سادات الورى قادتهم بعلوم ما حدا بالركب حاد
وهمو ردفى وعونى نصرتى ووقانى ما اعتدت تلك العواد
تلكم السادة ما صدهم عن هدى دينهمو فى الحق صاد

لست أدعو غير ربى أحدا وهو سؤلى وملاذى والعماد
وله الحمد فقد صيرنا بالهدى فوق نزار وأياد
فاعبدوا ما شئتموا من دونه ما عنانى منكمو ذاك العناد
لست منقادا إلى طاغوتكم بطي البيض ولا السمر الصعاد
لم أطف بقبر لا . ولا أرتجى ما كان من نوع الجماد
لست أكسو بحرير جدثا نخرت أعظمه من عهد عاد
لا أشد الرحل أبغى حجه قربة تنفعنى يوم التناد
حالفا كل يمين أنه سوف يقضى حاجتى ذاك الجواد
لا أسوق الهدى قربانا له « زردة » يدعونها أهل البلاد

وقرارى كلما أفظعنى حادث يلبسنى ثوب الحداد
للذى أطلب رزقى دائما منه إذ ليس لما يعطى نفاد
وإذا زرت أزر معتبرا بقبور مات من فيها وباد
داعيا ربى لهم مستغفرا راجيا للكل فى الخير ازدياد
والذى مات هو المحتاج لى هكذا أقضى ولا أخشى انتقاد

لا أنادى صاحب القبر أغث أنت قطب أنت غوث وسناد
قائما أو قاعدا أدعو به إن ذا عندى شرك وارتداد
لا أناديه ولا أدعو سوى خالق الخلق رءوف بالعباد
من له أسماؤه الحسنى وهل أحد يدفع ما الله أراد ؟
مخلصا دينى له ممتثلا أمره لا أمر من زاغ وحاد

خاتمة

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

المعروف ما عرف الشرع حسنه ، فأمر به إيجاباً أو استحباباً ، ودعا إليه دعاء طاعة وسنة . والمنكر ما أنكره الشرع وحكم بقبحه . فنهى عنه تحريماً أو تنزيهاً وحذر منه تحذير معصية أو بدعة .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ملاك أمر الدين وصيانة حرمته بين المسلمين . والقيام بهما يحفظ عليهم علم الشريعة المنير للعقول ويبث فيهم المواعظ المحيية للقلوب . ومن خسر عقله بالجهل وقلبه بالغفلة فقد خسر نفسه وخسر الدنيا والآخرة (ذلك هو الخسران المبين)

وقد جاءت الآيات الكثيرة والأحاديث العديدة فى الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فنقتصر منها على آية من آل عمران وحديث من صحيح مسلم وثان من صحيح البخارى .

قال الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من نبى بعثه الله فى أمته قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل . رواه مسلم

وعن النعمان بن بشير أنه (ص) قال مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها . وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً . رواه البخارى

وقد أجمع المسلمون على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين ، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر . وقد يتعين على واحد إذا لم يستطعه غيره .

فأما قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال النووى فى شرح مسلم ، المذهب الصحيح عند المحققين فى معنى الآية : إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم ، مثل قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وإذا كان كذلك فما كلف به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه ، فإنما عليه الأمر والنهى لا القبول . والله أعلم

ويشترط للقيام بأمر المعروف ونهى المنكر شروط (أحدها) العلم بحكم الشرع فى الفعل المأمور به أو المنهى عنه (ثانيها) أن يكون ذلك الفعل مما أجمع العلماء على حكمه أو اختلفوا فيه ولكن فاعله يعتقد القول بالمؤاخذة ويرتكبه مخالفة للشرع . (ثالثها) أن لا يؤدى القيام بهذا الأمر إلى محظور أشد ، واختلفوا فى شرط رابع وهو ظن الإفادة ، فاعتبره بعضهم ولم يعتبره جمع من العلماء منهم النووى . قال فى شرح مسلم ، قال العلماء رضى الله عنهم : ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكونه لا يفيد فى ظنه بل يجب عليه فعله ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين وقد قدمنا أن الذى عليه الأمر والنهى لا القبول ، وكما قال الله عز وجل (ما على الرسول إلا البلاغ)

ولم يشترطوا للقيام بهذه المهمة أشيا. (أحدها) الاستقامة . فعلى المخل بالشىء أن يأمر غيره به . قال النووى : فإنه يجب عليه شيئان : أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاه ، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر

(ثانيها) الولاية من الأمير ، فعلى غير المتولى القيام بهذا الشأن . قال النووى عن إمام الحرمين : والدليل عليه إجماع المسلمين ، فإن غير الولاة فى الصدر الأول والعصر الذى يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير

المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير ولاية . والله أعلم

قال النووى فى هذا المقام : واعلم أن الأجر على قدر النصب . وساق من الآيات (ولينصرن الله من ينصره – ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم – والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا – أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين .

(رابعها) المحافظة على رابطة من صداقة أو حظوة ، فعلى المرء أن يأمر صديقه وينكر عليه ولو خشى تغير قلبه عليه وسقوط حظوته لديه . قال النووى : فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقا ، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها ، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى فى عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص فى دنياه ، وعدوه من يسعى فى ذهاب أو نقص آخرته وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع فى دنياه ، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا ، وكانت الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم فى مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها .

وقد مر فى كلام النووى التنبيه على عناية السلف بهذا الواجب الدينى الاجتماعى وعدم مبالاتهم فى تنفيذه بالأمراء . ومواقفهم فى هذا الباب لا يتسع لها كتاب . ولكنى أقتصر منها على قصتين ، إحداهما عن المطلب بن السائب قال : كنت جالسا مع سعيد بن المسيب فى السوق فمر بريد لبنى مروان ، فقال له سعيد : من رسل بنى مروان أنت ؟ قال نعم ، قال : كيف تركت بنى مروان ؟ قال بخير ، قال تركتهم يجيعون الناس ويشبعون الكلاب ، فاشرأب الرسول ، فقمت إليه ، فلم أزل أرجيه حتى انطلق ، فقلت لسعيد : يغفر الله لك ، تشيط بدمك ؟ فقال اسكت يا أحمق فو الله لا يسلمنى الله ما أخذت بحقوقه . ذكرها الذهبى فى تذكرة الحفاظ

ثانيتهما عن الفريابى قال : اجتمع سفيان والأوزاعى وعباد بن كثير بمكة ، فقال سفيان : يا أبا عمرو حدثنا حديثك مع عبد الله بن على عم السفاح ، فقال : لما قدم

الشام وقتل بنى أمية جلس يوما على سريره وعبى أصحابه أربعة أصناف : صنف بالسيوف المسللة ، وصنف معهم الجزرة ، وصنف معهم الأعمدة ، وصنف معهم الكافركوب ، ثم بعث إلى فلما صرت إلى الباب أنزلونى عن دابتى وأخذ اثنان بعضدى وأدخلونى بين الصفوف حتى أقامونى بحيث يسمع كلامى ، فقال لى : أنت عبد الرحمن بن عمر الأوزاعى ؟ قلت نعم أصلح الله الأمير . قال ما تقول فى دماء بنى أمية ؟ قلت : قد كان بينك وبينهم عهود وكان ينبغى أن يفوا بها . قال ويحك اجعلنى وإياهم لا عهد بيننا . فأجهشت نفسى وكرهت القتل . فذكرت مقامى بين يدى الله ، فلفظتها فقلت : دماؤهم عليك حرام ، فغضب وانتفخت أوداجه واحمرت عيناه ، فقال لى ويحك ولم ؟ قلت : قال رسول الله ﷺ : لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : ثيب زان ونفس بنفس وتارك لدينه ، قال ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة ؟ قلت كيف ذاك ؟ قال : أليس كان رسول الله ﷺ أوصى لعلى ؟ قلت : لو أوصى إليه لما حكم الحكمين . فسكت وقد اجتمع غضبا . فجعلت أتوقع رأسى يسقط بين يدى . فقال بيده هكذا : أوى أن اخرجوه ، فخرجت فما أبعدت حتى لحقنى فارس . فنزلت وقلت وقد بعث ليأخذ رأسى أصلى ركعتين . فكبرت فجاء وأنا أصلى . فسلم وقال : إن الأمير بعث إليك هذه الدنانير . قال ففرقتها قبل أن أدخل بيتى ، عن تذكرة الحفاظ .

ذلك موقف علماء الأمس مما لا نحلم به اليوم .

والحق أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد قل رجالها منذ قرون . فهذا الإمام النووى فى القرن السابع ، قرن أئمة العلوم وحفاظ الحديث يشكو ضياع هذا الواجب فيقول : واعلم أن هذا الباب ـ أعنى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه فى هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً ، رحم الله عبداً أحيا هذه الفريضة ؟

الفهرس

Date Due

